

٢

[illegible]

الصورة الإسلامية في الأدب الألباني

لدى

الشاعر [illegible]

[illegible]

١٩٨٦

ΑΝΑΝΕΩΣΙΣ ΤΗΣ ΡΩΜΑΙΪΚΗΣ
ΚΑΙ ΠΑΤΕΡΙΚΗΣ ΠΑΡΑΔΟΣΕΩΣ



البطريرك الياس معوّض

الصورة الإلهية في الإنسان
لدى
القديس غريغوريوس بالاماس

(ترجمة وتعليقات)

المنشورات الأرثوذكسية

١٩٨٦

الإهداء الى

روح الصديق الخالد الطوباوي البطريرك الياس الرابع معوض ،
وصديقه الأب الياس مرقس مؤسس مدرسة اللاذقية الرهبانية واللاهوتية التي غذّت وتغذّي الكرسي الأنطاكي بالايمان الحار والتقوى ،
وكل الذين يحملون أسم النبي الياس أو يتخشعون له ببرّ وتقوى

إقرارا

بخلود الصديق وأبدية الصداقة الروحية الخالصة .
عيد التجلي ١٩٨٦

صديقهم الوفيّ

مقدمة

رجل العناية الإلهية

في تموز ١٩٤١ حرّك الملاك بركةَ « بيت حسدا » في الكرسي الأنطاكي ، فانبرى الشباب للخروج من الشلل الديني المزمن . في تموز ١٩٥٠ مرّ يسوع على تلك البركة ، فأقام مخلَّعها (يوحنا ٥ : ١ - ١٦) ، وذلك بدخول المغبوط الياس معوض المجمع الأنطاكي ، فتنفّس المؤمنون الصعداء . وهبَّتْ رياح التجديد ، فرأى بعض صحب الياس ، في أوائل الستينات ، أن إنقاذ الكرسي مستحيل إلاّ بإيصال الياس الى سدة البطريركية . وتتالت القرارات المصيرية حتى هبّت دنيا الأرثوذكسية في خريف ١٩٦٩ تهيِّء الياس للمنصب ، مشمولاً برضوان إخوانه بطاركة العالم الأرثوذكسي . فانقادت إليه طائعة في ٢٥/ ٩/ ١٩٧٠ ، فهلّل أرثوذكس الدنيا . هذا الدعم المسكوني حمل الياس على تنفيذ أفكاره التي نسّقها في العامين ١٩٦٩ و١٩٧٠ حول أوضاع العالم الأرثوذكسي ومصير الكرسي الأنطاكي فيه ، بما أنه معدّ لأن يكون « بيضة القبان » . وكان عند حسن ظن إخوانه البطاركة ، فأكبروا فيه روحه الوديعة ، وإخلاصه ، وعفافه ، وتنزّهه ، وتجرّده عن الصغائر والرجاسات ، وكِبَر نفسه وخُلُقه . فكانت هناك ثقة بأن هذا الإنسان الذي تربّى على إفراط في الحياء والعفة والوداعة ، زاهداً في الدنيا ، راغباً في الآخرة ، عدواً للملذّات والمال والأباطيل والأمجاد الفانية ، متواضعاً ، درويشاً أخاً للدراويش والرهبان ، (هذا الإنسان) لا يمكن أن يكون إلاّ رجل الله والكنيسة . فقد قضى العمر متوحداً زاهداً يصوم ، ويصلي ، ويطالع آباء الكنيسة ، ويترجم

الكتب الدينية . توفاه اللّه في ٢١/ ٧/ ١٩٧٩ ، فكانت لوفاته رنّة أسًى وحزن عميقين في العالمين الأرثوذكسي والكاثوليكي[١] . فلم يخفِ أحد الكرادلة عواطفه الجيّاشة .

وحرص الياس على رفع شأن الإكليريكيين حتى بدا متعصباً لهم . وقبيل وفاته بذل بسخاء معلناً إستعداده للبذل الوافر في سبيل تخريج كهنة رفيعي السويّة روحياً وثقافياً . كان هذا هاجساً هاماً لديه .

لمّا آنتمى الياس الى الأكليريكية كان الكرسي الأنطاكي خاوياً من التراث الروحي الرهباني والمرشدين الروحيين . فأنشأ الياس نفسه بنفسه . إلاّ أن الحظ صاقبه ، بتدبير إلهي ، فسافر الى إسطمبول لدراسة اللاهوت باليونانية في معهدها اللاهوتي بجزيرة خالكي . إنما درس اليونانية الحديثة لا يونانية الكتاب المقدس وآباء الكنيسة . ومع هذا بقي حظه كبيراً . فاليونانية الحديثة حافلة بالترجمات عن اليونانية القديمة والمصنفات الحديثة . غرق الياس في تراثنا اللاهوتي والرهباني بشغف كبير حتى صار هوايته . فانكبّ عليه بشغف حتى نقله اللّه الى حِجَاله[٢] . لا أعرف عن أي بطريرك أنطاكي قبل الياس أنه ترك لنا تراثاً ثميناً سوى سلفه العظيم البطريرك أنسطاسيوس الأول (القرن ٦) . هذا العظيم كان في يوم من الأيام قبلة أنظار العالم المسيحي شرقاً وغرباً[٣] . فكان الياس خير خلف عظيم لذلك السلف العظيم ، وإنْ تباينت ظروفنا كثيراً منذ القرن ٦ حتى القرن ٢٠ .

أصدر الياس « نشرة بطريركية الروم الأرثوذكس » . حفلت بمواضيع شائقة ، إلاّ أنه كان ينقصها حسن التنويع ، والتخطيط للمدى البعيد ، وحسن توزيعها ، بثمن ، على كل الرعية . في عدد كانون الثاني ١٩٧٣ حفلت بمقال رائع من ١١ حلقة آنتهت في آذار ١٩٧٤ . عنوانه : « الصورة

---

(١) كان رجل انفتاح صادق .
(٢) جمع حَجَلة : بيت يزيَّن للعروس . راجع نشيد الأناشيد ١ : ٤ .
(٣) سر التدبير الالهي ، ص ١٥٤ .

الإلهية في الإنسان كما يراها بالماس » (أو بالاماس لسهولـة اللفـظ) . وقـد نوهت به في حاشية الصفحة ٧٣ من « سر التدبير » .

بالاماس هو أكبر آباء الكنيسة في أواخر القرون الوسطى . هو البحـر الذي صبَّت فيه جداول الأرثوذكسية ، وعلى الأخص مكسيمـوس المعتـرف (٦٦٢) وأسلافه وروحانية رهبنات جبل آثوس (اليونـان) . اهتـمَّ به في عصرنا كثيرون . إلاّ أن السبّاق (في تهيئة الأذهان لفهمه وفهم متانة آرتباطه بمكسيموس المعترف) هو فلاديمير لوسـكي المتـوفي في ١٩٥٨/٢/٧ . وقـد آعترف له الأب جان مايندورف بهذا السبـق ، مع أن مايـنـدورف من أكبـر الإختصاصيين ببالاماس[1] . إهتم العالم ببالاماس بمناسبة مرور ستمائة سنة على وفاتـه (١٣٥٩ ـ ١٩٥٩) . فتألفـت لجنـة دولية لتحقيق مخطوطاتـه ، ونشرها في بلاد اليونان ، فصدرت عدة مجلدات هي من عيون التراث الروحي العالمي المدهش . الياس تابع الحـركة اللاهـوتية المعـاصرة فطالـع بالامـاس بشغف . والدليل هو كتابنا الحاضر الذي يطـرق بعض الجوانـب اللاهـوتية الهامّة من فكر غريغوريوس بالاماس . وقد عالجها مطولاً في سفر ضخم الأب كبـريان (كبريانـوس) كيرن باللغـة الـروسية ، بعنـوان « أنثروبولـوجية بالاماس » . الأخ الحبيب عدنان طرابلسي دفع اليَّ بحثاً شائقاً بعنوان « الرؤية الأرثوذكسية للإنسان » يعتمد كثيراً على بالامـاس . إلاّ أنـه مكثَّف لا يفقـه مغاليقه إلاّ نفر أقل من ضئيل . متى ذاب جليد كثافته تمّ نشره . ففيه الكثير من تفكير مكسيموس المعترف العسير الهضم حتـى على كبـار اللاهـوتيين في العالم أجمع[2] . إلا أن سمعان اللاهوتـي الحـديث (الأب الروحـي البعيد لبالاماس وجبل آثوس بعد مكسيموس) أسهل عبارة .

هذا الكتاب يحتاج الى توضيحات وتعليقات واستدراكات ليعود جزيل الفائدة العميمة ، ويستحـق المطالعـة مراراً وتـكراراً بالشروط الثلاثـة التي

---

(1) Vision de Dieu, Préface.(١)

(٢) بالأماس تأثر جداً بمكسيموس .

وضعها الناسك الروسي الكبير أغناطيوس برينتشنينوف المتوفي في ٣٠/ ٤/ ١٨٦٧ . فقد أوصَى بمطالعة تراثنا الآبائي **بتبصرّ كبير ، وبنظام ، وعلى الأخص بدون عجلة** . الكتب اللاهوتية والروحية لا تشيخ ولو حفظها المرء غيباً . تبقى جديدة دوماً .

إلاّ أن البطريرك الياس لم يكن متمرّساً بطرائق أوروبا في التأليف والنقد والتحقيق والتمحيص . وكانت تنقصه الثقافة التاريخية والحقوقية لتعميق نظراته الشمولية وترابطها وتوسيع آفاقها . وكان عصبي المزاج وحادّه . ولذلك كان يستعجل . وكان يفهم اليونانية القديمة على ضوْ معرفته للحديثة والتحليل اللغوي للألفاظ . لذلك تفتقر بعض الفقرات والألفاظ الى الدقة . وترجماته جزئية لا تشمل كامل النص غالباً . وقد لا يذكر المصادر ، ولا يضع الإستشهادات بين قوسين ، ولا يعود الى ترجمات الكتاب المقدس . فيترجم من عنديّاته نصوص العهد الجديد . وقلما علّق أو وضع حواشي لتوضيح الغوامض .وهكذا نراه في هذا الكتاب لا يذكر اسم الكاتب ، ولا اسم المترجم ، ولا مكان طبع الكتاب ولا لغته الأجنبية التي ترجم عنها .

ما تعوّد الناس عندنا على النقد العلمي البريء ، بنزاهة ، فيتوهمون أن النقد المذكور طعناً . آفتهم الكبرى الهوى والتحزب . قيل قديماً : «آفة الرأي الهوى » . رجل الحقيقة يقف فوق الأهواء والأطماع والشهوات . الهوى الوحيد المسموح هو أن يهوى المرء الحقَّ أي يسوع الذي هو مصدر كل خير وحق . فقد كنتُ أقرب الناس الى قلب البطريرك الياس . إن انسَ لا انسَ : ١ - رؤيتي له في ٢٢/ ٩/ ١٩٧٨ خارجاً من شاغورة دير صيدنايا درويشاً مثل أبسط الرهبان ، متذلّلاً خاشعاً مثل النسّاك . ٢ - قوله لي مرة : أنا كل تفكيري محصور بالكنيسة . كان ذلك في حلب . ٣ - تألّق وجهه في ٧/ ٥/ ١٩٦٦ بعد أن وضعتُه في الصورة الوحيدة للإنقاذ ، واطمأن قلبه الى سلامة الحل وما فيه من فروسية في الإنجاز .

فبعد أكثر من ٣٥ سنة من الصدق والنزاهة في المحاماة كان شعاري

وبقي: العلم هو العلم ، الحقيقة هي الحقيقة ، النزاهة هي النزاهة ، في نور الرب ورضوانه .

يبقى في الكتاب عيب خاص بالمصنِّف اليوناني لا بالمترجم . بالاماس (بوق آباءالكنيسة) لاهوتي شخصاني يفهم الثالوث الأقدس والتجسد الالهي والإنسان إنطلاقاً من مفاهيم لاهوتية فلسفية شخصانية تركز على كون الله ٣ أشخاص ويسوع شخصاً في طبيعتين والإنسان شخصاً في روح وجسد . هذا هو العصب الحسَّاس في كتابي « سر التدبير الإلهي » ، كما استخلصته من المصادر اللاهوتية . فات الكاتب اليوناني أن يعرض موضوعه في هذا الاطار اللاهوتي الشخصاني .

البطريرك الياس هو اليوم في حِجال اللّه . فالمداراة والعواطف في الكتابة عنه ممنوعة . الصراحة والصدق أثمن الجواهر .

صارت كتبه مراجع دينية في اللغة العربية . لا نستطيع أن نتعامل معها إلاّ بحياد النقّاد من الأدباء . وإن درسه ونقده ، بنزاهة ، صحبه المقربون ، وضعوا الأمور في نصابها الصحيح وأراحوا الأجيال القادمة من التخبط العشوائي بسبب نقص المعلومات أو عدم إتصالهم الشخصي به . عايشته منذ ١٩٤٣ - ١٩٤٤ . وسأبقى صديقه الوفيّ الى الأبد . وله الفضل في تناولي القلم للتصنيف اللاهوتي . أليس هو أبو النهضة اللاهوتية في الكرسي الأنطاكي الذي فهم علم اللاهوت رهبانية وصلاة ودروشة لا حذلقة وتفلسفاً ، فهِمَه رسالةً وتكريساً لله لا إدعاء فارغاً وتباهياً.كان يحلم بحيش من اللاهوتيين المتربين على ذلك ، المكرّسين ، والرهبان الأُصَلاء . ولا قيامة لكنيستنا بدونهم ، وإلاّ كنَّا مرتزقة وكوارث وعالات . إنها بحاجة الى العمق الروحي الرهباني الكافر بالحال والمال والجاه والطعام واللباس .

ألا رحم اللّه البطريرك الياس أوسع الرحمات وتقبّله في حضنه مع الرسل والشهداء والأبرار ، وألهمنا الصبر والسلوان ، وأبقانا على عهد الوفاء . فقد كان البطريرك الياس وفيّاً لصحبه محباً متسامحاً . فليكن ذكره الى الأبد

٢١ حزيران ١٩٨٣

اسبيرو جبور

المقدمة

١ ـ يقول الفصل الأول من سفر التكوين : « إن الله خلق الإنسان على صورته » . هذا التعليم الكتابي صار منذئذٍ عنصراً ملازماً للعلم المسيحي عن الإنسان . إلا أن مضمونه لم يحدد بوضوح تام . في مؤلفات الاباء والكتّاب الكنسيين ، يلاحظ إستعمال الحد « على صورة اللّه » على نطاقٍ واسع ، ويفسرونه تفاسير جد مختلفة . لا نرى فقط كثرة التفسيرات المختلفة في إنتقالنا من مؤلفات كاتب إلى مؤلفات كاتب آخر ، بل حتى عند ذات الكاتب . فاقليمس الإسكندري في كتابه « التحريض » ، يرى أن الإنسان مخلوق بعقله « على صورة الله » ، أمّا في كتابه « المربّي » فيراها في قدرة الإنسان التناسلية . وأمّا غريغوريوس نيسس فبينما يراها في كتابه « القدرية » في العقل والحرية ، يراها في كتابه « خلقة الإنسان » في المواهب الروحية والجسدية التي أعنى الله بها الإنسان .

يستحق الموقف الذي يتخذُهُ ابيفانيوس أن يثير إهتمامنا أمام التفسيرات اللاهوتية العديدة لِـ « على صورة اللّه » : « على كلٍ لا يجب أن نحدد في أي قسم يكون الإنسان على صورة اللّه ، بل أن نعترف أن الصورة هي في الإنسان ، حتى لا نجحد نعمة اللّه ولا نكفر بها . كل ما يقوله اللّه هو حقيقي . فـ « على صورة اللّه » لا تنحصر في نقطة إيجابية ولا تأخذ مداها في عنصر معين من الطبيعة البشرية ، بل يعبر عنها كما في إنعكاس موشوري من خلال الوجود البشري » .[1]

(١) راجع « سر التدبير » (ص ٦٧ ـ ٧٩) .

هذا الإدراك الحي القوي الكثير النواحي لِـ « على صورة اللّه » نجده في تعليم بالماس . إنه دائم المحافظة تقريباً على الفرق بين « صورة اللّه » وبين « على صورة اللّه » ، الذي شدَّد عليه أوريجين ليرفع الفهم الخاطىء السميك عن كالسوس . « صورة اللّه » هو إبن اللّه المولود الوحيد . مع ذلك فبالماس يسمي الإنسان « صورة اللّه » كما يفعل غالباً آباء الكنيسة ، على إعتبار أنه صورة جد صغيرة ، لا طبق الأصل عن اللّه ، كالإبن .

يرى بَالَمَاس ، على غرار التقليد الإسكندري ، أن المقصود بـ « على صورة اللّه » هو عقل الإنسان وهو أسمى عنصر في طبيعته . « لا مجال في « على صورة اللّه » للجسد[1] ؛ بل لطبيعة العقل ، ولا شيء حسب الطبيعة أسمى منه . فإذا كان في الإنسان شيء سامٍ حسب الطبيعة ، فهو « على صورة اللّه » . كما في اللّه كذلك في عقل الإنسان المخلوق « على صورة اللّه » ، يرى بالماس جوهراً وحركة . حركة العقل تتألف من خواطر وتفكيرات لا يمكن أن تقرن ، ولا أن تعتبر مختلفة كلياً عن الطبيعة العاقلة التي تنبع منها . وتتميز حركة العقل عن الطبيعة ، كما تتميز النتيجة عن السبب المولد . تتحد مع الطبيعة العقلية كتعبير عقلي لمضمونها . نحن هنا أمام سبر بالامي لعنصر جديد بارز لمضمون « على صورة اللّه » الفعَّال الكثير النواحي .

يتابع بَالَمَاس توغّله البعيد للبحث عن « على صورة اللّه » في الإنسان : كما أن الإله الواحد هو ذاته مثلث أي عقل وكلمة وروح ، كذلك الإنسان المخلوق « على صورة اللّه » هو وحدة عقل وكلمة وروح . من عقل الإنسان تولد الكلمة وينبعث الروح ، كما يولد الإبن من الأب وينبثق الروح القدس . هذه المقارنة ليست بمطلقة تأكيداً ، إنما تشهد فقط إلى ما يرمز إليه الإنسان المخلوق على صورة اللّه . إنه يرمز إلى الثالوث الإلهي .

بإستعمال بَالَمَاس صورة سيكولوجية تذكرنا بتعليم أوغسطين عن

---

(١) يتناقض هنا الكاتب مع ما سيجيء . راجع « سر التدبير » (ص ٦٧ ـ ٧٧) .

الثالوث الأقدس ، يوضح أن الأقنوم الثالث الأقدس إن هو إلاّ عشق الآب السري الأزلي للإبن وعشق الإبن للآب[1] . لا حاجة للإشارة هنا أن إستعمال هذه الصورة يتعارض مطلقاً مع نظرية اللاتين حول إنبثاق الروح القدس ، لأنه في الحين الذي يعتبر فيه الأقنوم الثالث كعشق متبادل بين الآب والإبن ، يوضح بجلاء أن هذه الشركة يراد منها الإستعمال والملكية ، لا بروزه الوجودي . حسب هذا القياس الثالوثي ، إن الإنسان يملك الروح كعشق عقلي للعقل ولكلمته ، وهكذا يفسر بالماس نهم قابلية الإنسان الطبيعية للمعرفة .

كما أن اللّه بروحه يضبط ويحيي العالم ، كذلك عقل الإنسان يضبط ويحيي بروحه جسده المرتبط به . هذا الحدث يشكل ، حسب بالماس ، عنصراً أساسياً ، يجعل « على صورة اللّه » في الإنسان أكمل منها عند الملائكة . وهكذا « المخلوقون هؤلأ على صوزة اللّه ، لهم عقل وكلمة وروح . بيد أن الملائكة لا تملك قوة محيية ، لأنهم ليسوا مرتبطين بأجساد أرضية ، لذلك هم دون روح الإنسان » .

نفس الإنسان ، حسب تعليم بالماس ، والتقليد الأرثوذكسي ، ليست أسيرة في الجسد ، كما يعلم الأفلاطونيون ، حتى تسعى للتحرر منه . بالعكس ، إنها في حالٍ وصالٍ متناسق مع الجسد لا تحب مفارقته أو تركه قط ، إلاّ إذا حدث شيء كضغط خارجي أو مرض أو إذا أصيب . إن هذا الإرتباط العشقي ، عشق النفس العقلي للجسد ، تبرزه بالقوة « على صورة اللّه » ، في الإنسان كله ، دون أن تجعله مركباً من عناصر مادية وروحية ، وهكذا يقترب بالماس من ايريناوس[2] خاصة حيث يجمع إلى تعليمه التقليد الذي حرثه إيريناوس ونماه والذي بموجبه تطال صورة اللّه الإنسان الروحي والجسدي .

---

(١) لم يستعمل هذا التعبير الأوغسطيني سوى بالاماس من الكتبة باليونانية (مايندورف) .
(٢) راجع سر التدبير (ص ٧٣ و . . .) وقاموس الروحانية الفرنسي (٧ : ٧١٨) .

وأخيراً يبتهج بالماس في سبر غور التثليث في عمل روح الإنسان في بعض النواحي ، دون أن يُضيع عليه الفرصة ليرفع الإنسان إلى ما فوق الملائكة . يمكننا أن نقول مع الغير ، أن الثالوث في معرفتنا يظهر فينا لا في الملائكة ، لأننا « على صورته » .

إن سلطة الإنسان السَيدية التي شدَّد عليها لاهوتيو المدرسة الأنطاكية [1] بتفسيرهم لمعنى « على صورة اللّه » ، تعطي للإنسان ، حسب بالماس ، ميزة عظيمة أخرى لا يملكها حتى الملائكة . وكما يلاحظ كيرن [2] مطولاً فيقول : « الملائكة هم أرواح خادمة لا لله بل للبشر » .

النظرة إلى الإنسان كعالم صغير ومساهم في الخليقة ، حسب التفكير اليوناني القديم وتفكير الكثيرين من آباء الكنيسة ، هي نظرة بالمية أيضاً . كل العالم المحسوس خُلِقَ من أجل الإنسان ، ولهذا السبب خُلِقَ أخيراً كخاتمة للخليقة . الإنسان هو خلاصة كل الخلائق الإلهية ، وزينةٌ لا الخليقة المنظورة ، بل والغير المنظورة .

وأخيراً إن الحرية التي ينظر إليها باسيليوس الكبير وغريغوريوس نيسس ويوحنا الدمشقي وآخرون من آباء الكنيسة كعنصر أولي من عناصر « على صورة اللّه » ، هي ، في نظر بالماس ، ميزة عظيمة للإنسان المخلوق « على صورة اللّه » ، بها كان يتعلق قبل السقطة ، وبها يُحقَّق مخططُ الله من أجل الإنسان وإتمام عمله التجديدي حتى بعد مجيء المسيح .

إذاً فالإنسان جاء من اللّه ووجوده يرمز إليه . يعيش بإرادته الصالحة وعناية خالقه ، ويمكنه أن يحقق مصيره السامي بإرشاده وتقويته . إن وجود وحياة الإنسان يفقدان كلِ معنى بإبتعادهما عن اللّه . العثور على معنى الحياة

(١) راجع سر التدبير (ص ٧٣ و . . .) وقاموس الروحانية الفرنسي (٧ : ٧١٨) .

(٢) كبريان Kern

وكمال الوجود البشري هما فقط بالقرب من اللّه ونعمته . ليس الإنسان بغير محكوم على الأرض ، ولا يعطي من ذاته معنى لوجوده . أعطي له هذا المعنى من اللّه بخلقته على صورته ووهبِهِ الإمكاناتِ والنموَّ ، والكمال الشخصي . الإنسان مهيأ منذ خلقته ليُقربَ من مثاله ، من اللّه ، ليتألَّه . حركة الإنسان من الصورة إلى المثال تعبر عنها ، حسب الآباء ، العبارة الكتابية « على مثاله » .

***

٢ ـ عندما أراد الله أن يخلق الإنسان (حسب ما جاء في سفر التكوين) قال : « فلنصنعن الإنسان على صورتنا ومثالنا » . كلمة مثال المستعملة في الترجمة السبعينية[١] تعبر عن شيء بالقدرة ما انتهى بعد ، بينما تعبر كلمة صورة عن حالة انتهت ، وتؤخذ في هذه الحالة كمنطلق لتحقيق المثال . أكثر المفسرين المحدَثين لا يقبلون بهذا التمييز بين التعبيرين ، مستندين الى النص العبراني الأصلي حيث تعني كلمة « تشالم » ما تعنيه كلمة « دُموث » [٢] . في الواقع لا يصرّ بالماس في كتبه الأساسية على التفريق بين الصورة والمثال ، لكن هذا لا يعني أن بالماس لا يقول بهذا التمييز ، لأنه في بعض الحالات يذكر ويطبق ذلك بإخلاص ، حسب أصول التقليد الآبائي .

« على صورة اللّـه » مُلْكٌ عام لكل البشر ، بينما المثال قدرة . وكل إنسان ، كما يقول بالماس ، « مخلوق على صورة اللّـه وربما على مثاله » ، المشابهة متروكة لحرية وقابلية الإنسان ، لم تفرض عليه فرضاً ، مع أنها هدف وجوده . يستطيع الإنسان أن يحرث ويُنمي فيه الصورة الإلهية ، إذا خضع بحريته الى إرادة اللّه ، ووجّهته دائماً ، وجعلها شيئاً شخصياً مستقراً وملكاً ثابتاً له . وهكذا يتمكن من التشبه باللّـه . بيد أن الإنسان سلك سلوكاً

(١) اليونانية

(٢) أي ان الصورة والمثال في الأصل العبراني هما مترادفان.

معاكساً، فتجاهل فعله اللهّ وإرادته ، ومنح كل معنى لحياتـه ووجـوده بهـذه الطريقة . هذا ما فعله آدم عندما أطاع الشيطان ، وهكذا سقط من نعمة اللّه وحُرِم من البهاء الإلهي الذي حمله كوشاح قبل السقطة ، وخسر المثال الذي كان يحرثه في نور النعمة الإلهية . وبكلمة أخرى إن الإنسان خسر بسقطته إمكانية الشركة مع اللّه والإلتصاق بحياته .

حياة الإنسان تنبع من الإلتصاق بحياة اللّه والشركة معه . كما أن روح الإنسان تحيي الجسد بقوتها المحيية ، كذلك يهب اللّه الحياة الإلهية للإنسان ببهاء النعمة . بيد أن هذه الروح تملك الحياة في ذاتها ، والذين يشتركون معه يعيشون إلهياً ويحوزون على حياة إلهية سماوية ، حياة كلها ألوهة وصلاح ، لأولئك الذين أُهِّلوا لبهاء الطبيعة الإلهية . أما إهمال النفس للـروح الإلهـي المحيي ، فإنه يقودها الى ما تقوده هجرة الروح المحيية لجسد الإنسان ، يقودها الى الموت . وبمقارنته بين الملائكة والبشر على أساس الصورة والمثال ، يجد بالماس أن البشر يفوقون الملائكة من حيث الصورة ودونهم من حيث المثال . الملائكة المتشحون بالنعمة والبهـاء الإلهـي هم أنـوار ثانية بعـد اللّـه . أمـا الشياطين الذين خسروا سموّ وموهبة اللّه فقد صاروا بالعكس مظلمين .

لا ينتهي بالماس الى موت النفس رغم قبوله أن حياة الإنسان الحقيقية الأزلية تتوجد بالقرب من اللّه ، بل يشدد على تعليم خلود النفس الإنسانية . أخذ الإنسان من اللّه نفساً خالدة لا تنحل مع الجسد بل تحيا أزلياً . مسؤولية الخلود هي التي تجعل دينونة الخطأة مدركة وعادلة . أكان الإنسان يعذَّب أبدياً لو لم يعْطَ منذ البدء الموهبة والمسؤولية ليعيش أزلياً ؟ أية عدالـة في الحضور الثاني سيحققهـا قيام وتحـويل الخطـأة الى معذبـين أبـدياً ؟ ستحيا إذاً نفس الانسان أزلياً لأنها جبلت خالدة ، وستبقى خالدة حتى بعد إنفصال الإنسان عن اللّه ، وهذا أرهب موت يموته الإنسان البعيد عن اللّه . الإنسان البعيد عن اللّه هو أرهب صورة يمكن أن يتصورها الإنسان ، وهل أرهب من نفسٍ تموت وهي الخالـدة بطبيعتها ؟ « مـوت النفس هو أن تميت النفس الخالـدة

بطبيعتها » .

يلاحظ بالماس بمقارنته بين نفس الإنسان ونفس الحيوان ، أن الحيوانات تملك نفساً بالطاقة فقط لذلك تموت مع الجسد . أما نفس الإنسان فتبقى خالدة ، لأنها تملك الحياة بالجوهر وبالطاقة[1] . نفس الإنسان الحية حقيقةً ليست خالدةً وعاقلة فقط بل ومُنعمة من الله . أما إذا إنفصلت عن الله تموت روحيا وتصبح شقيةً ، وقحةً .

بيد أن نتائج الموت الروحي لم تنحصر فقط في نفس الإنسان ، بل امتدت الى الجسد الذي تحييه . فالأمراض والفساد وأخيرا الموت الجسدي هي من ثمار الموت الروحي الذي أصاب الإنسان بعد السقطة . إن الموت ليس واسطةً للإنتقام بل نتيجة إبتعاد الإنسان عن اللّه . كان الشيطان أول من إبتعد عن اللّه ، لذلك أصيب أولاً بالموت . وبمشورته الخبيثة ، تمكن أن يجر الإنسان وراءه ، فتمرد وصار شريكه في الموت . يقول القديس باسيليوس : « على قدر ما يبتعد الإنسان عن الحياة ، على قدر ما يقترب من الموت » . « الحياة هي اللّه ذاته » ، يقول بالماس . ويقول تقليد الآباء اليونانيين[2] الإجماعي : « الموت هو فقدان الحياة . اللّه ليس بمسبب للموت الروحي ولا للموت الجسدي . اللّه لم يسبب لا موتَ النفس ولا موتَ الجسد ، ولم يقل أولاً آمراً ، كلوا تموتوا ، بل إن أكلتم موتاً تموتون » .

الموت هو ثمر الخطيئة ، موجود في العالم بدون إرادة اللّه . الخطيئة هي محور الموت ، وبه سيطرت على العالم . الخطيئة التي تسيطر على الإنسان بقوة الشيطان تُوقظ الخوف والعذاب ، وعلى العموم غريزة حب البقاء ، ويولِّد الشيطان في الإنسان الخطيئة عن طريق الخوف ومحبة الذات ، ويجعله يفشل في تحقيق مصيره الأزلي .

---

(١) energia

(٢) أي الذين كتبوا باليونانية . فجلّهم من مصر وشرقنا قديماً .

لم يدخل جرم وراثي الى العالم بواسطة آدم[1] ، ولا تجاوز البشر كلهم وصيةَ الله في شخصه . بآدم دخلت الخطيئة ، وبالخطيئة (دخـل) الموت ، بعد سقطة آدم ، سقطت كل ذريته تحت نـير الخطيئـة ، لذلك لـم تُعفَ من الموتِ . الموت الجسدي للذين أصيبوا بالموت الروحي هو سماح إلهي خَيرٌ . به تُقْطَع الخطيئة ، والشرُ لا يستمر . ألا « أن المسيح والسابق والقديسـين الخاضعين لإرادة الله وكأعداءٍ للخطيئة والشيطان ، لا يجب أن يصابوا بالموت الطبيعي بل بالموت القسري من أجل الخير ، موتِ الإستشهاد » .

في العالم هنا تتحقق النهاية بالموت ، وستأخذ كمالها في الحضور الثاني للمسيح ، وسيُقاد الإنسان الذي يبقى في خطيئته الى العذاب الأبدي ويُحرم من مواهب موت الجسد المؤقتة . أما التائب والعائد الى اللّه ، فالى الحياة الأبدية ، الى عدم الفساد والتأله .

---

(١) ليس هناك خطيئة اصلية جدية موروثة، آدم اورثنا الموت والبلى (مايندورف، ص ١٨٤ من الفرنسي).

٢ ـ تجديد الطبيعة البشرية في المسيح

مع أن الإنسان إبتعد عن اللّه ، فاللّه بقـي مهتماً به يبغـي خلاصـه . « ماذا لم يفعله اللّه الجزيل الرحمة من أجل تحسين الأخلاق والسير في طريق الفضيلة ؟ » . حلَّ أولاً في هذا العالم المحسوس الذي يقود الإنسان ويرفعه الى خالقه ، لأنه مرآة للأمور الفائقة العالم . كثيراً ما نرى مثل هذه النظرة عن العالم عند الآباء والكتّاب الكنسيين الأقدمين وخصوصاً عند أوريجين الذي كان يفسر لتلامذته العناصر الطبيعية المختلفة ومظاهرها تفسيرا يستهدف من ورائه إثارة الإعجاب في نفوسهم أمام العظمة الإلهية . أمَّا الوسيلة الثانية فهو الناموس الأخلاقي المطبوع الـذي به ردع الله الإنسـان عن الفسـاد الكلي ، وأهلَّه للتبنـي والتجـدد في المسيح . ويعتبـر بالماس هذا النامـوس كديان لا ينخدع وكمعلم لا يخطىء .

أمَّـا الـكشف الطبيعـي الـذي وهبـه اللّـه للإنسـان بمدرسـة الطبيعـة وبالناموس الأخلاقي المطبـوع ، فلـه ، بالنسبـة لبالامـاس ، طابـع تمهيدي وتربوي ، قيمته طفيلية بالنسبة للمعرفة التي يهبها الكشف الإلهي .

إختار اللّه شعبه المختار بقصد تهيئة العالم للكشف في المسيح . فأبرز في أحضانه أنبياء ومعلمين ، واجتـرح المعجـزات ، وأعطـاه أخـيراً ناموسـاً مكتوباً ، « معيناً لناموس طبيعتنا العقلية ، وللتعليم المنبـث في الطبيعـة » ، وأظهر اللّه فائق محبته وطول أناته بإرسال إبنه الوحيد الى العالم .

في موعظة قالها القديس غريغوريوس بالماس في يوم السبت العظيم ، أوضح ، بجلاء ومهارة خطابية وعمق لاهوتي ، هدف التجسد الإلهي. « صار إبن اللّه إنساناً حتى يُظهر لنا الى أي علوٍ يريد أن يرفعنا . صار ع الإنحدار حتى لا نتكبر . صار مثنّى[1] حتى يتجاوب كوسيط مع كل ناحية من نواحي الإنسان ، فيحلّ رباط الخطايا وينقي الفساد الحاصل من خطيئة الجسد ، ويظهر محبة اللّه لنا وعمق الشرور التي سقطنا بها ، صار إبن اللّه إنساناً ليكون لنا مثالاً للتواضع ودواءً شافياً من الكبرياء وليظهر صلاح طبيعتنا المخلوقة من اللّه . صار إنساناً ليكون توكيداً ورئيساً للقيامة والحياة الأزلية حالّاً اليأسَ . وبصيرورته إنساناً وقبوله للموت جعلنا نحن البشر أبناءً للّه وشركاء في الخلود الإلهي . وأظهر أن طبيعة الإنسان، خلافاً لكل المخلوقات، خُلِقت على صورة اللّه . بهذا القدر يقترب الإنسان من اللّه قربى تمكنه من أن يصير معه اقنوماً واحداً[2] . ويتكرم هذا الجسد المائت فلا تصبح الأرواح المتكبرة أفضل من الإنسان ، ولا يؤلهها الإنسان بسبب لا جسديتها[3] وخلودها السطحي . يقرب الطبيعتين المتباعدتين البشر واللّه بصيرورته مثنّى في الطبيعة » . وأخيراً يتابع بالماس قائلاً : « إن تجسد كلمة اللّه أظهر وجود الأقانيم في الثالوث الأقدس ، ولم يترك للبشر أن يروا اللّه كفعل بسيط تشهد له الخليقة ويُرى فيها » .

إن غنى التعابير وكثرة المعاني اللاهوتية في هذه المقطوعة دليل على الرؤية المتعددة النواحي لهدف التجسد الإلهي . يشدد بالماس في أقواله بصورة عامة وكلّما سنحت له الفرصة ، على المعنى الخلاصي لوحدة الطبيعتين الإلهية والبشرية الأقنومية ، دون أن يهمل النواحي الأخرى من عمله الخلاصي والأشارة اليها .

---

(١) أي صار يسوع ذا طبيعتين اثنتين : الهية وانسانية.

(٢) المقصود هو ان طبيعة المسيح البشرية والطبيعة الالهيّة متحدتان في الاقنوم الواحد، اقنوم كليهما.

(٣) أي الأرواح الشريرة.

يتكلم بالماس بنوعٍ من التفضيل عن عملِ المسيح كمعلمٍ وكمثالٍ للمؤمنين . المسيح في رأي الآباء وبالماس هو المعلم الوحيد . أمَّا المسيحيون كتلامذة لكلمة اللّه المتجسد فهم مثقفو اللّه . مقابل مشورة الشيطان الخبيثة يقدم لنا المسيح مشورة التواضع الصالح والطاعة للّه . يجابه المسيح الضلال الذي أضله الشيطان بالحقيقة ، ويصف التوبة كقوة للنهوض . لا يمارس الضغط ولا يفرض إرادته على الإنسان ، بل يعلم وينصح الإنسان إحتراماً لحريته ، وكمعلمٍ كاملٍ يجعل من شخصه مثلاً لتعليمه اللفظي .

تعليم بالماس عن المسيح كمعلم للبشر ، يذكرنا بالتقليد الإسكندري اللاهوتي وخاصة باقليمس وأرِيجين . ولا حاجة بنا للقول بأن عمل المسيح كمعلمٍ للبشر قد أشير إليه منذ القدم في تعليم الكنيسة .

يشدد بالماس بصورةٍ خاصة على الوحدة الأقنومية بين الطبيعتين الإلهية والبشرية في شخص المسيح . كلمة الله أخذ من العذراء جسداً بمنتهى النقاوة قابلاً للآلام والموت . يقول في إحدى المناسبات : إن الموت الطبيعي لا يليق بالمسيح ، لا لأن بالماس يشاطر من شبَّه بهم بأفكارهم الشبهية الغير الفاسدة ، بل لأنه يربط فوراً الموت بالخطيئة . لذلك لم يكن لا السابق ولا القديسون مدينين للموت الطبيعي . تعليم بالماس ينفي كل رؤية شبهية في التجديد في المسيح ؛ أمَّا ما يقوله بصورةٍ خاصة عن الكرامة التي أعطاها كلمة الله للجسد المائت بتجسده ، فهي ، كما يقول كيرن ، نشيد النسك المسيحي للإنسان وجسده[1] .

(1) النص غامض . قد يكون المقصود ان طبيعة المسيح البشرية طاهرة . وكان يجب ، اذن ، ان تكون غير قابلة للآلام والاعراض والموت والبلى . الا ان يسوع ارتضى ـ من أجل خلاصنا ـ ان تكون كذلك اي قابلة للآلام وو . . . .

- ٤ -

إن كلمة اللّه بإتخاذه للطبيعة البشرية ، وهبها كمال نعمته ، وأعتقها من رُبُط الفساد والموت . نتيجة هذه الوحدة الأقنومية للطبيعتين في المسيح ، كان تأله الطبيعة المتخذة : « الكلمة صار جسداً والجسد صار كلمة » . هكذا تحقق في المسيح تجديد الصورة وإرتفاعها الى المثال الأول .

محل بالماس يقوم فوق الخط المدعو بخط « التعليم الطبيعي[1] للتأله » . هذا التعليم يُنبع تأليه الطبيعة البشرية من هذا الإتحاد الأقنومي بكلمة اللّه في التجسد . وقد لحظ ذلك ايريناوس وطوّره فيما بعد أثناسيوس الكبير وغريغوريوس نيسس وكيرلس الإسكندري ومكسيموس المعترف ويوحنا الدمشقي[2]، وصار ملكاً عاماً للتقليد الأرثوذكسي . إن غريغوريوس نيسس بنقله عقيدة التثليث الى ساحة العلم عن الإنسان[3] يقول: إن طبيعة البشر واحدة ، بيد أنها تتميز بكيانات متعددة . إلاَّ أن الطبيعة ، كما يلاحظ الدمشقي ، يمكن أن تفهم أولاً « كرؤية عارية » . وفي هذه الحالة لا توجد بحد ذاتها ، ثانياً ، يمكن أن ينظر إليها في الفرد . في هذه الحالة هي ذاتها مع طبيعة النوع ، دون أن تحوي كل كياناته . إن كلمة اللّه بتجسّدِهِ لم يتخذ الطبيعة البشرية بالمعنيين الأولين . في الحالة الأولى ليس التجسد هو المقصود ،

---

(١) بالفرنسية physique

(٢) نسي سمعانَ اللاهوتي الحديث الرائعَ .

(٣) المقصود « الأنثروبولوجيا » .

أمَّا في الثانية فلنا تجسد في كل الكيانات . ما أخذه كلمة اللّه في تجسده كان جبلتنا الأولى . الطبيعة في الفرد التي لم تكن سابقاً ، بل أخذت وجوداً في أقنومه [1] .

يعلم غريغوريوس بالماس خطياً ، أن التجديد في المسيح ليس تجديداً للكيانات البشرية ، بل للطبيعة البشرية المسؤولة التي اتحد بها كلمة اللّه بأقنومه . « لم يأخذ منّا أقنوماً ، بل حدَّده بإتخاذه له متحداً به بخواص أقنومه . في شخص المسيح وُحدّت كل الطبيعة البشرية المنظورة فردياً ، فتألهت بإتحادها أقنومياً مع كلمة اللّه ، وأخذت كمال فعل الألوهة » . إن جسد المسيح كجسد كلمة اللّه المتجسد هو بالنسبة لبالماس والتقليد الأرثوذكسي نقطة تماس بين الإنسان واللّه ، ويهب الطريق الذي يقود الى ملكوت السماوات . نجد عند أثناسيوس الكبير الصيغة المثيرة لهذا الموقف . يلاحظ أنه بعد تجاوز آدم ، إنقاذ كل البشر إلى الهلاك . جسد المسيح هو أول ما خلص وتحرّر كجسدٍ لكلمة الله . » أمَّا نحن كشركاء في جسده ، نخلص . وهو الذي يقودنا الى الملكوت السماوي وإلى أبيه » .

بتأله الطبيعة البشرية في المسيح تألهت بداية طبيعتنا ، وخلق « جذر جديد » كفيل أن يهب الحياة وعدم الفساد الى ما ينبت منه . هذا الجذر المالك لكمال النعمة يهب للبشر ذاتياً ، ويعطيهم . لأنه ، كما يلاحظ بالماس ، لا أحد بين المخلوقين يستطيع أن يسع قوة الروح الغير المتناهية ، ما عدا المولود في الحشا البتولي ، بحضور الروح القدس الذي يظلل وقوة العلي . لذلك وسع ذاك كمال الألوهة ، ونحن أخذنا من كماله .

الحالة الجديدة المخلوقة بالمسيح للجنس البشري ليست بعودة بسيطة إلى الحالة التي كانت قبل السقطة ، بل حدثاً رفيعاً جداً . إنها نقله الى

---

(١) راجع « سر التدبير » (ص ١٣٠ - ١٣٢) فانه أوضح وأكمل .

السموات . حوّل اللّه بحكمته الإنحراف الإرادي عند آدم ، الى فرصة لارتفاعه . « وهكذا عرف اللّه إنحراف إرادتنا ، وسقطتنا ، فرممّها بحكمته وأعاد تركيبها بصلاحه إلى الأفضل » .

بيد أن رباط البشر مع الجذر الجديد في المسيح يتأتى عن سبب طبيعي كرباطهم بأصل آدم العتيق . أي كما أن سلالة البشر من آدم تربطهم عفوياً بالأصل القديم ، فإن وحدتهم مع الأصل الجديد تتحقق بالإشتراك الشخصي الحر في البعث في المسيح . وهكذا فالتعليم الطبيعي عن التأله الذي شرحه آباء الكنيسة الأرثوذكسية وبالماس لا يدعو الى تحويل البشر تحويلاً ميكانيكياً ، بل إلى تجديد فعلي للطبيعة البشرية في أقنوم كلمة اللّه . يراه كل إنسانٍ يشترك شخصياً وبملء حريته في حياة المسيح .

إنّ آباء الكنيسة وبالماس بِرَبطهم تألهَ الطبيعة البشرية في المسيح بوحدتها الأقنومية مع كلمة اللّه لا يقلّلون من قيمة المعنى الخلاصي التجددي لموته وقيامته ، بل يجعلونها الأساس المتين الذي عليه يرتكزان ، فيصيران ينابيع تجددية ثابتة للإنسان . إن الآباء وبالماس يواجهون التجسد لا كلحظة زمنية ، بل كموت إيجابي تمَّ في شخص المسيح الذي عاش وعلَّم وإجترح العجائب ومات وقام وصعد الى السموات .

إن إتخاذ كلمة اللّه للطبيعة البشرية من والدة الإله العذراء يشكل أساس وبدء التجسد وتأليه الطبيعة البشرية . ويقوم تمامها في الآلام والقيامة بين كل الحوادث للتدبير الإلهي[1].. تجسد ربنا وسيدنا يسوع المسيح هو أميز عمل ولا يضاهيه عمل . ونهاية هذا التجسد الآلام الخلاصية والقيامة . « آنذاك كل شيء صار جاهزاً لخلاصنا » ، صليب المسيح كان أقوى معركة وأقساها ضد الشيطان . لقد قضى على الخطيئة وتمجَّدت طبيعة المسيح البشرية

(١) هذا رد ضمني على لوسكي في مقاله « الفداء والتأله » (في كتابه « على الصورة والمثال ») . الرد مصيب (اثناسيوس ، في التجسد ٢٠ و ٢١ ، وسواه) .

بالقيامة . وأخيراً إن صعود المسيح كسقفٍ لتدبير كلمة الله قاد البشرية الى مجد الآب .

ظهرت حقيقة هذا الوضع الجديد أولاً في شخص البتول . صارت حدوداً بين الطبيعة المخلوقة والغير المخلوقة[1]، وصارت الطريق والمثال لأولئك الذين صاروا في طريقهم نحو الله ، لأنها أول من عاشت حَدَث تأله البشر .

يتضح من كل ما قلنا أن كل إمتهانٍ للطبيعة البشرية في المسيح لا يشكل قضية لاهوتية فقط ، بل فيه إنحدارات بشرية عقلية . حارب أثناسيوس الكبير الأريوسيين ، لأنهم أهانوا ألوهة المسيح وخرّبوا أساس تأليه الإنسان . لو كان المسيح خلقة لما تمكن أن يوحِّد خلائقَ الله مع الله ، ولكان هو بحاجة إلى من يوحِّده مع الله . كذلك فعل لاهوتيو الكابادوك ضد أتباع أبوليناريوس الذين كانوا يرفضون وجود نفس عاقلة في المسيح . لم يكن بالإمكان تحقيق تأله الإنسان ككل ، إذاً كان المسيح ليس بإنسانٍ تام . « لأن الغير المدرك الذي لا يشفى بإتحاده مع الله يخلص »[2].خصوم بالماس ما أهانوا بكل تأكيد طبيعة المسيح الإلهية رأساً ، إلاَّ أنهم اعتبروا النعمة المؤلِّهة كمخلوقة . أمَّا بالماس فاعتبر ، وهو القائم فوق خط التقليد الآبائي ، إن حقيقة الإنسان الإلهية تُهان بالصميم بسبب الزعم الجديد . كيف يمكن أن تتأله المخلوقات بطريقة مخلوقة ؟ لو كانت النعمة المؤلِّهة خِلْقِةً أيضاً . لذلك لم يتردد بالماس من تسمية خصومه بالآريوسيين المكملين لعمل الهراطقة القدماء وأصحاب البدع .

طبيعة المسيح البشرية حسب تعليم بالماس تألهت بسبب وحدتها الأقنومية مع كلمة الله ، وأصبحت نبعاً لا يجفّ ، لأنها تحوي وحدها كمال الفعل المؤلّه الغير المخلوق . يُعطَى للبشر ويؤلههم .

---

(١) بالاماس قال في العذراء انها التخوم الفاصلة بين الخالق والمخلوق (مين ١٥١ : ٤٧٢) .

(٢) النص غامض ومبتور . المقصود غالبا هو قول غريغوريوس اللاهوتي : « ما لم يتخذه الله لم يشفَ » أو مع كيرللس : « لم يخلص » .

٣ ـ شركة الإنسان بالروح القدس مع اللّه

يقول الرسول بولس : إن محبة اللّه إنسكبت في قلوب المؤمنين بالروح القدس . ويقول باسيليوس الكبير : « لا تُعطَى موهبة الى الخليقة إلا بالروح القدس » . ويقول غريغوريوس بالماس : « إننا لا نملك خبرة مواهب اللّه بالعقل بل بنعمة اللّه التي فينا » . تكلم الروح القدس بالأنبياء ، وهيأ مجيء المسيح وحصل تمام شكل الكشف الإلهي الأسمى ، تجسد كلمة اللّه الذي ألّه الطبيعة البشرية . بالروح القدس عاد المسيح الى الكنيسة بعد صعوده ليبقى فيها الى جيل الأجيال[1] .

« لا يتكلم الروح القدس من عنده » ببقائه في الكنيسة ، بل يأخذ من المسيح ويعطي للبشر . . بسكنى الروح القدس في روح الإنسان يجعله شريكاً في نعمة المسيح ، كما أن صبح العيون بإتحاده بالأشعة الصباحية يصير نوراً فعالاً فترى المحسوسات ، كذلك العقل بصيرورته واحداً مع الرب يرى الأمور الروحية » . وهذا يجعل العبادة الحقيقية والسجود للّه ممكنَين . العبادة بالروح والحق التي بشر بها المسيح ، ليست تعبيراً سلبياً يعبر عنها الإنسان . الروح والحق اللذان بهما نسجد للّه ، حسب تعليم بالماس والتقليد الأرثوذكسي ، هما اقنومان إيجابيان لله الثالوثي الأقانيم . الحق هو الإبن الوحيد للآب . والروح هو الأقنوم الثالث من الثالوث الأقدس . طريق التمجيد واللاهوت يقود بالروح القدس عن طريق الإبن إلى الآب . في نور الروح القدس ، يتأمل الإنسان نور الله الحقيقي .

---

(١) الروح القدس عمّد التلاميذ يوم العنصرة ، فالبسهم المسيح وجعلهم اعضاء الكنيسة . والكنيسة هي جسد المسيح . إذن : الروح القدس اعاد الينا المسيح ليسكن فينا .

تأليه الإنسان وتقدمته الى الآب هو من عمل الثالوث الأقدس المشترَك ، يتم بمسرة الآب بالإبن في الروح القدس . تأله الإنسان سيكون مستحيلاً حتى ولو لم يكن الإبن خلقه بل الروح القدس . يسأل غريغوريوس نيسيس : كيف يمكن أن نتحد مع المسيح إذا كان الروح القدس لا يحقق مثل هذا الإتحاد ؟ كيف يمكن للروح القدس أن يحقق ذلك إذا كان خلقه ؟ « لا شيء يقنعني أن من شابهني يمكنه أن يخلصني » . يقول غريغوريوس اللاهوتي : « إذا لم يكن الروح القدس إلهاً عليه أن يتأله أولاً وهكذا يستطيع أن يؤله الآخرين » .

إن أثناسيوس الكبير سبق ورأى القربى الوثيقة بين هاتين الهرطقتين ، ولاحظ أن الآريوسيين برفضهم لألوهة الإبن ، يتجهون طبيعياً الى رفض ألوهة الروح القدس .

الأساس الذي يرتكز عليه آباء الكنيسة في محاربة محاربي الروح القدس لا يقوم فقط على اللاهوت الكشفي بل على العيش في التدبير الحاصل في المسيح . وبإعلانهم عدم خلقة الروح القدس لا يدافعون عن الثالوث الأقدس فقط بل يحصنّون سر التدبير الإلهي الذي به تم تجديد وتأليه الإنسان . لو كان الروح القدس خلقة لما تفكك ثالوث اللّه فحسب بلْ وإمكانية تأليه المؤمنين[1] .

إن تعليم محاربي خلاص الإنسان (القائلين) بنعمة إلهية مخلوقة ، المناهضَ للتعليم الآبائي الأساسي القائلَ بأن تجديد وتأليه الإنسان لا يتم بوسائل مخلوقة ، كان سبباً للحراب التي جمعها وأطلقها بالماس . الروح القدس حسب تعليم بالماس هو الذي يؤله الإنسان بفعله الطبيعي وبالنعمة ، لا بوسائل مخلوقة أو بجوهره . ومع أن فعل الروح يختلف عن الجوهر الإلهي ،

(١) الآباء قالوا : ان الروح القدس يؤلّهنا فهو اله إذاً

إلا أنه لا ينفصم عنه بل بالعكس ينتزع الجديرين ليربطهم بالله[١] .

نعمة الروح القدس تدخل الى نفس الإنسان لأنها غير مخلوقة . لا شيء مخلوق يمكنه أن يتحد مع نفس الإنسان . الأرواح الشريرة تستطيع أن ترتبط بها ، لكنها لا تتحد مع نفوس الخطأة ، لأنها أيضاً مخلوقات ، بعكس الروح القدس فإنه لا يسبب إلتصاقاً بسيطاً ، بل دمجاً لنعمته بوجود الإنسان . الروح القدس حاضر في كل مكان بالجوهر والفعل . مع أن جوهره يبقى غير مدرك وغير ملموس ، إلا أن الأرواح الصالحة والقديسين يلمسونه فعلاً كملائكة يتقدسون بشركتهم في نعمة الروح ، إلا أنهم يختلفون عنه ، إذ إن « القداسة فيه بالطبع أمّا قداسة أولئك فبالإستحالة »[٢]. البشر بإشتراكهم في نعمة الروح يحوزون في داخلهم على عنصر تجديدي دائم ويصبحون روحيين . في نظر الآباء وبالماس : لا يعبر التعبير « روحي » عن خاصة سلبية ، بل يبعث الإنسان الجديد الذي يولد بالنعمة المجددة ، نعمة الروح القدس . « فكما أن الموهوب بنعمة العقل يسمى عاقلاً كذلك الموهوب بنعمة الروح يسمى روحياً » . نعمة الروح القدس هي عنصر أولي لوجود الإنسان الروحي تهبه الحياة الحقيقية .

بإنطلاق بالماس من هذا المبدأ ، إن نعمة الروح القدس هي فعله الطبيعي ، وبإستعماله عبارة معارضيه في التفكير ، إن النعمة مخلوقة يصل الى النتيجة ، وهي أن هؤلأ يعتبرون الروح مخلوقاً[٣] ، لا أحد يستطيع من المخلوقات أن يقول أن فعل الروح الإلهي الطبيعي مخلوق إلاّ ويقول أن الروح مخلوق » . الى هذه النتيجة توصل أيضاً بالنسبة لموقف القائلين بإنبثاق الروح

---

(١) المقصود: جوهر الله غير مقترب اليه . يسوع ضم طبيعته البشرية الى اقنومه الالهي فامتلأت نعمة . النعمة صادرة من جوهر الله وساكنة فينا. هي تؤلهنا. هي غير مخلوقة. تحل فينا بينما يستحيل الاقتراب من الجوهر.

(٢) أيْ النعمة الالهية تحوّلنا ، ولكن دون تغيير جوهرنا نوعياً .

(٣) قلنا في سر التدبير ان الآباء قالوا بارتباط الفعل بالطبيعة . فعل الله أي نعمته يصدر من طبيعته . فهو إلهي سرمدي مثل طبيعته . إذن : فعل الروح القدس أي نعمته هو مثله : غير مخلوق .

القدس من الإبن أيضاً . هذا التعليم يتنكر لوحدة الثالوث ، ويجعل الإبن مسبِّباً مع الآب لإنبثاق الروح القدس ، وينزل الروح الى مصف المخلوقات لإن الإبن مع الآب هما سبب المخلوقات .[1]

يتقدم بالماس الى ما هو أبعد فيربطعقيدة إنبثاق الروح القدس من الإبن برفض النعمة المؤلهة الغير المخلوقة . يجيب بالماس على السؤال : لماذا قام فرلام بهذه المعركة لتحطيم النعمة الإلهية الغير المخلوقة ؟ يجيب بالماس ويقول : إذا لم تكن هناك نعمة غير مخلوقة فالروح المعطى بالإبن ، المشهود له من الآباء هو غير مخلوق . ليس الفعلُ الغيرَ المخلوقِ بل أقنومَ الروح . « أترون ؟ يسأل في الختام ، إرادته العميقة الموشحة بالظلال ومحاولته الخداعة المجرمة ؟ » .

بإدعاء هو سهر[2] إن عقيدة إنبثاق الروح القدس لم يكن لها أي ثقل على الحياة الروحية ، يلاحظأن إنبثاق الروح القدس من الآب فقطلم يكن له أي أثر في تطوير التعليم النسكي والمستيكي ، ولم يُنَمِّ هذا التعليم لا بالماس ولا أتباعه ، حتى ولا أحد من الكتبة البيزنطيين والنساك » . في الواقع لم يحدث مثل هذا ، حيث أن التعليم هذا لا يشكل في الكنيسة الأرثوذكسية تجديداً كما هو في الحال في الكنيسة الغربية بالنسبة لعقيدة الإنبثاق من الإبن ، بل هو بند من بنود الإيمان قديم جداً . من الواضح أن بالماس نفسه يربطتمييزه بين الجوهر والفعل في اللّه ، الهامّ جداً بالنسبة لتعليمه اللاهوتي النسكي مع تعليمه عن إنبثاق الروح القدس من الآب فقط .

عقيدة الكنيسة الأرثوذكسية لا تتألف من سلسلة من البنود تُعَبر عنها أشكال حياتية روحية ، بل هي مجموعة عضوية متحدة ، يؤثر كل عضو فيها على الآخر . إنبثاق الروح القدس ، بالنسبة لبالماس ، ليس تفصيلاً عقائدياً بل موضوعاً أساسياً ، مرتبطاً بكل الإيمان المسيحي وبمآله . أي بتجديد

---

(١) يتخدلق الكاتب اليوناني . فاللاتين يؤمنون بالثالوث الواحد في الجوهر .

(٢) هاوسهرHausherr ، بالاماس غير متعصب . الكاتب اليوناني يذهب في المقال ابعد من بالاماس . بالاماس من اعاظم تاريخ الكنيسة .

الإنسان وتأليهه .

ينظر بالماس الى حوادث العصر على ضوء موشور التقليد الأرثوذكسي . إنه يعي وجدانيا بأنه قائم فوق الخط الآبائي . إنه يؤمن ويعبد ويحيا ويعلم على غرار أولئك . أنه يرى في تعاليم فرلام وأكينذيوس وغريغوراس مخالفاً لواقع التأله الذي تحافظ عليه الكنيسة المقدسة . الطريقة التي تُهان بها الخبرة الكنسية طريقة جديدة ، لذلك لا يكرر بالماس تعليم الآباء بصورة جافة ، ليحارب التعاليم الجديدة فقط ، بل يندفع خلافاً ، يدفعه الروح ذاته ، ليقدم شهادة الكنيسة الأرثوذكسية خبرة لعصره .

٤ ـ طابع التأله السري الكنسي

رأينا أن تجديد الطبيعة البشرية في المسيح لم يعتقها فقط من الفساد والموت ، بل أيقظ فيها حالة التأله التي كانت فيها قبل السقطة ، بتألهها وإمتثالها للّه الآب . التجديد والتأليه للطبيعة البشرية الحاصلان موضوعياً في المسيح يصبحان منظورين ذاتياً في الإنسان بواسطة الأسرار الكنسية . وهكذا يصبح الإنسان في المسيح بنعمة الروح القدس غالباً للخطيئة ، يعلو فوق سلطان الفناء والموت ، ويدخل الى حياة جسدِ المسيح ، أي الى الكنيسة . المعمودية وسر الشكر هما ملخص كل سر التدبير في المسيح ، أما الكنيسة فهي « شركة تأله » بسبب طابعها وهدفها .

الأسرار كواسطة لتأله الإنسان

الأسرار سبل[١] مخلوقة تهب نعمة اللّه الغير المخلوقة . الإنسان كمخلوق يحتاج الى سبلٍ مخلوقة ليقترب ويتناول نعمة الروح القدس الغير المخلوقة . بيد أن عنصر الأسرار ليس طابعها المادي المخلوق[٢] بل الموهبة الروحية الغير المخلوقة التي تعطى بها . لذلك فالمتقدم الى الأسرار لا يجب أن ينحصر في رؤية حجابها المادي ، بل عليه أن يحدق روحياً ويتأمل النعمة « الخبيئة في أعماقها » . إن التدبير في المسيح هو النبع الذي تستقي منه الأسرار النعمةَ . كما قلنا آنفاً : المسيح جدَّد وألّه فيه الطبيعة الإنسانية المفسودة لأذواق

---

(١) الاب شميمن انتقد القول ان الاسرار سبل. . . اعتبره دخيلا غريبا في كتابه Water and Spirit .

(٢) عرضنا في « المزيفون » لاهوت المعمودية لدى الآباء .

البشر ولكي تثمر النعمة التي إنكشفت في المسيح يجب أن تصبح منظورة في الأشخاص الإيجابيين . هذا لا يحدث إجبارياً بطريقة آلية سحرية . المسيح لا ينقض حرية الإنسان باسم خلاصه . مثل ذلك يعني إعادة النظر في هدف الخليقة . خُلِق الإنسان حراً وأبتعد عن اللّه بحريته . هذا يعني أنه يستطيع أن يبقى إنساناً إذا ما عاد الى اللّه بحريته .

إن أسرار الكنيسة تهب إمكانية التبني الشخصي[1] للنعمة المؤلهة ، التي أعطاها كلمة اللّه لطبيعتنا التى لبسها . بها يتحد الإنسان الفاسد المنحدر من جذر آدم الفاسد مع أصل المسيح الجديد ، ليصير شريكاً لعدم الفساد والحياة الإلهية . فنعمة اللّه الغير المخلوقة الأزلية بسكناها في الإنسان تجعله لا بداية له أزلياً[1] . هذه التحديدات الجريئة للإنسان المجدد بنعمة اللّه لا نجدها لأول مرة عند بالماس . إن مكسيموس المعترف يستعمل ذات الكلمات ليصف الذين يعيشون في المسيح من البشر المنقادين بنعمته . في الواقع هذا لا يغير الميزة الأساسية بين الله والإنسان كخالق ومخلوق ، بل يعبر عن الحدث ، نظراً للتجديد الحقيقي الذي يصيب الإنسان بتبنيه للنعمة المؤلهة[2] . النعمة هذه تجعل الإنسان إلهاً « في كل شيء ما عدا مساواته (لله) في الجوهر » . الإنسان المخلوق يعمل ويحيا بموجب فعل الله الغير المخلوق القاطن فيه . هذا يجعل الرباط المباشر مفهوماً بحد ذاته القائم بين الحياة السرية والأخلاقية عند المؤمنين . إذا بقي الإنسان في الخطيئة فالمعمودية ، كما يقول بالماس ، والأسرار الأخرى في الكنيسة لا تفيد في شيء . وهكذا عندما يأخذ الإنسان نعمة الله ويصبح مالكاً لعدم الفساد والتأله بتناول الأسرار ، يتعرض طوال حياته الأرضية لخطر السقوط بسبب تهاونه الشخصي . هذا الحدث بدون شك يعطي حياة المؤمن طابعاً مؤسياً . يتضح ذلك في الحياة النسكية بصورة خاصة

(١) للانسان بداية . إلا ان اتحاده بنعمة الله التي لا بداية لها ينقله من صعيد الموقت الى صعيد الأزل .

(٢) الجملة الثانية توضح الجملة الأولى من هذه الفقرة : الانسان يتبنّى . . . راجع سر التدبير والمزيفون .

حيث الصراع من أجل التغلب على التهاون المرتبط بالجيل الحاضر ، والحفاظ على حرارة الشركة مع الله ظاهر بشكله العنيف . أما خطر السقوط والموت الروحي فيحياه الإنسان بخوف وجزع . الإيمان بطول أناة الله والشعور بتفوق نعمته ضد قوة الشرير هو الذي يحل مأساة الوجود البشرية . بإشتراك المؤمن في سر الشكر يتأكد من حضور الله ومن طول أناته ورحمته .

سر الشكر وسر المعمودية هما ، في نظر بالماس ، السران الأساسيان . بهما يتعلق خلاص الإنسان « بهذين السرين يتعلق الخلاص . كل التدبير الإلهي يتعلق بهما ، موقف بالماس هذا لا يشكل تجديداً في التقليد الأرثوذكسي . الذهبي الفم يقول ما يشابه ذلك . يقول الذهبي الفم وهو يتكلم عن الجندي الذي طعن جنب المسيح : « لم تخرج الينابيع بصورة بسيطة ولم تتفجر من الجنب لمجرد التفجّر . لقد قفزت منها الكنيسة ليجد فيها أولئك الذين يولدون من الماء ويتغذون بالدم والجسد شفاء . من هنا تأخذ الأسرار وجودها » .

لا يرفض بالماس الأسرار الأخرى ، إنه يتكلم عن قدرتها التقديسية كلما سنحت الظروف ، إنه يتكلم مثلاً عن سر المسحة فيقول : « بها تنزرع النعمة الإلهية في قلوب البشر وتهب ختم النبوة في يوم الخلاص » . ويحرض المؤمنين على أن يكون لهم آباء روحيين وأن يتقدموا إليهم بكل إيمان وتواضع ليشتروا[1] خطاياهم وينالوا الغفران . النظرية السكولستيكية القائلة بوجود سبعة أسرار ، مجهولة في التفكير الآبائي لذلك بقيت غريبة عن تعليم بالماس مع أنها مقبولة من الوسط الأرثوذكسي . بقي بالماس ضمن التقليد الآبائي وشدد على سر المعمودية وسر الشكر اللذين بهما يولد الإنسان من جديد ويصبح مالكاً للنعمة المؤلهة الغير المخلوقة[2].

---

(١) ربما: ليستروا.

(٢) بالاماس وسمعان اللاهوتي وكل التراث الرهباني يشددون على أهمية الاعتراف بالخطايا في توبة حارة صادقة وعلى الارشاد الروحي . وهما من أنصار المناولة المتواترة . ويوجب بالاماس الاعتراف قبل المناولة .

سر المعمودية

يتحقق دخول الإنسان الى كنيسة المسيح وبدء شركته الشخصية في التجديد في المسيح وتألهه بسر المعمودية . بهذا السر ينعتق الإنسان من الخطيئة ويتحرر من رباط الموت . بين الخطيئة والموت توجد علاقة سببية . دخل الموت الى العالم بالخطيئة فصارت منذئذ محور الموت . لا يمكن أن تفهم تنقية الإنسان من الخطيئة بدون الإنعتاق من السبب الذي سببها . ما دام الإنسان خاضعاً لسلطان الخطيئة فهو ملزم بالموت ، ويخطىء ما دام مهدداً به . كيف يمكن أن نحيا بعيدين عن الموت وأسبابه قائمة في طبيعتنا المائتة ؟ لا مجال طبيعي أو أخلاقي للخروج من هذه الحلقة المفرغة . إن المعمودية التي يتقبلها الإنسان هي القوة التي تجعله يتخطى ذلك .

بالمعمودية يموت الإنسان مع المسيح ويقوم معه في حياة الجيل الجديد ، سر المعمودية يؤلف بين الموت والحياة والقيامة والقبر . الإنسان الذي أصبح ميتاً بالخطيئة يدخل الى دائرة حياة النعمة التي يقدمها له ختم موهبة الروح القدس ومناولة جسد ودم المسيح . لا مجال للشيطان مع المعتمد . مع ذلك يخضع المعتمد الى إهانة الشيطان الخارجية . هذا لا يعود الى نقص التجدد الحاصل بنعمة الله في الإنسان بل هو سماح إلهي . إنها فرصة ليسهم الإنسان في عمل الخلاص وليستعدّ لقبول عدم الفساد وخيرات الجيل الآتي :

لا تعتق المعمودية الإنسان من جريرة وراثية[1] ، كما يقول أوغسطين ، وبالتالي التقليد الغربي . إنها تعتق من وراثة الموت التي دخلت بالخطيئة وسبَّبتها . بالمعمودية ، يقول كيرلس الأورشليمي : ينحل محور الخطيئة ، ويعتبر غريغوريوس النيسسي أن المعمودية هي السبب للإنبعاث والتجديد .

(١) لا نقول بوجود خطيئة جدية أصلية . هذا قول أوغسطين .

ويقول غريغوريوس بالماس إنها تجدّد الإنسان المخلوق وتُدخله الى حياة الجيل الجديد القائم فوق الحس والعقل وتجعله شريكاً في عدم الفساد والموت ، وعدم الخطيئة .

بنعمة المعمودية تتنقى صورة اللّه وتشرق وتنبت فيها القوة لتحصل على الشبه باللّه ، على التأله ، الذي صار غير ممكن بعد السقطة . يسلك بالماس في هذه النقطة ويتبع بأمانة تعليم ديادوخ فوتيكوس . يقول فوتيكوس : « نعمة اللّه تهب الإنسان بالمعمودية خيرين . أولا ، تجديد الصورة ، ثانياً ، إمكانية تحقيق المثال . تجديد الصورة يُعطى للإنسان فوراً بقوة حمام المعمودية المقدسة التي تنقي النفس من دنس الخطيئة وتعيده الى مجد بهائه الأولي . أما إمكانية تحقيق المثال فتقدّم أولاً بصورة بذار ليحرث فيما بعد لا من ذاته فحسب بل ومن الإنسان الراغب في مشابهته لله » .

إن المعمودية كميلاد للإنسان بالروح يفوق جداً ميلاده الطبيعي . في كتب ديونيسيوس الأريوباجي[1] تعتبر المعمودية « حفلة لمعرفة اللّه » . يصير المعمد إنساناً روحياً « لأن المولود من الروح القدس روح هو » . يصير المسيح ذاته أباً للمعتمد وهكذا يصير كل المعمدين بالمسيح ، بصورة فائقة الطبيعة ، أبناءه « تجاوزاً للقربى الطبيعية » ، مع أنهم مولودون من آباء عديدين . إن فكرة أبوة المسيح هذه ليست مألوفة في الفكر الآبائي بالنسبة للمؤمنين[2] . بيد أن المسيح في إنجيل يوحنا لا يسمي تلامذته أصدقاء بل أولاداً ، والمسيح كاله هو أب البشر ، ما دام الإنسان قد جبل بفعل الثالوث المقدس الخالق . بيد أنه يصير في المعمودية أباً للمسيحيين بصورة تفوق الطبيعة ، فيلدهم ويجعلهم شركاء للنعمة غير المخلوقة .

---

(١) ليس هذا بديونيسيوس الأريوباغي تلميذ بولس الرسول . إنما هو ، غالباً ، كاتب سوري متأثر بالأفلوطينية الجديدة . كتب بين العام ٥٠٠ إلى ٥١٠ .

(٢) هذا غير صحيح . ربما تأثر الكاتب اليوناني برأي ماينيدورف (المدخل ، ص ٢٤٧ الحاشية ١١١ ، فرنسي)، ناسبا الأمر إلى تأثر بمكاريوس المنحول ، دون تدليل . الذهبي الفم استعمل ذلك . راجع نصه الرائع في مقال ـ كراسة عدنان طرابلسي ، مجلة « الكلمة » الغراء ، العدد ٩ .

النعمة المعطاة بالمعمودية تسبب قيامة النفس بأثمارها في حياة المؤمن الروحية . النفس بابتعادها عن اللّه تموت وبعودتها إليه وإرتباطها بنعمته تتقدم وتدخل الى الحياة الحقيقية . قيامة النفس تتحقق في الحياة الحاضرة وبهذا تتقدم قيامة الأجساد التي ستتحقق في اليوم الأخير . هذا يعني تأكيداً أن القوة المجددة والمؤلهة في المعمودية تنحصر فقط في نفس الإنسان . هذا التعليم غريب عن تعليم الآباء وبالماس . النعمة تجدد الجسد : « يُرى الآن في الإيمان لا بالعين ، وبالرجاء المقبل » . تجديد النفس يأخذ بدءه أيضاً في المعمودية وينمو فيما بعد في الحياة بالمسيح ويكتمل برؤية اللّه في الجيل الآتي[1]. إننا نعرف أنه إذا ظهر كمال التبني والتجديد في المسيح فإننا سنصبح مشابهين للّه لأننا سنراه « كما هو » « إننا الآن أبناء للّه » .

إن النعمة المعطاة إذن بالمعمودية توجه الى كل إنسان ولها طابع « العربون » . المعتمد يصبح إبناً للّه وينتظر التبني ومتحداً يرجو الإتحاد ويتأله وينتظر التأله . من المفروض أن يتم تعميم التبني والتجديد وتأله الإنسان في الجيل الآتي بالقيامة الثانية قيامة الأموات وبتتميم مواعيد اللّه . كما أن الطفل المولود كاملاً يملك من أبويه إمكانية صيرورته رجلاً يرث والديه ولا يملكها بسبب صغر سنه ، كذلك الإنسان المجدد بالمعمودية ، فإنه مؤهل للتبني المذكور والتأله في الجيل الآتي مع أنه يعطي القوة ليصير إبناً للّه ووارثاً للمسيح[2] .

مرحلة حياة الإنسان بعد المعمودية تعطي للإنسان إمكانية النضوج في الحياة في المسيح وإنماء الشركة مع اللّه بمعونة نعمته . وكما سنقول فيما بعد ، كل مسيحي يجب أن يتشبه قدر طاقته بحياة المسيح ، فالمعمودية كأول لقاء بين الإنسان واللّه ، تتحقق بإشتراك المعتمد في موته وقيامته ، وتشكل بدء قبول

---

(١) سمعان اللاهوتي يقول باننا نراه منذ الآن (النشيد ٣٤ : ٥٦ - ٧٦ و ٧٨ - ٨٢ و ١٠٣ - ١٠٧) .

(٢) أي ان كمال التبني والتأله والاتحاد يظهر في الجيل الآتي .

التشبه بالمسيح . موت الإنسان من أجل الخطيئة وحياته مع المسيح وبه يجب أن يتحققا عملياً في حياة الإنسان على الأرض .

كل الذين يأخذون ويحافظون على نعمة المعمودية المجددة ، يمكنهم أن يميزوا داخليا تجددهم ، وأن يمتلكوا خبرتـه المستيكية[1] . جدير بالإهتمام ما يقوله سمعان اللاهوتي الحـديث عن ضرورة وجـود مثـل هذه الخبـرة عنـد المسيحيين . يرتكز سمعـان على قول الرسـول بولس « أنتـم الـذين بالمسيح اعتمدتم المسيح لبستم » ، فيقول « كل مسيحي معمَّد يلبس المسيح . من هو المسيح الذي لبسناه ؟ إنه بكل تأكيد اللّه والإنسان الكامل الذي بألوهته أَلَّه الطبيعة التي اتخذها والتي بها يؤله البشر . كيف يمكن أن يتجاهـل الإنسـان الشيء الذي لبسه ؟ عندما يلبس العريان فوق جسده فإنه يشعر بالحدث الذي تم ويميز نوع لباسه . كيف يمكنُ للعاري نفسياً أن يبقى عديم الشعور عندما تلبس نفسه المسيح ؟ إذا حصل ذلك فهناك تفسيران ممكنان : إما أن اللّه غير موجود أو أن من لبسه هو عديم الشعور أي مائت . إني أخاف أن يكون الذين يدعون أنهم يملكون المسيح إنما يملكونه بدون أن يشعروا به . في هذه الحالة هم أموات وعراة النفوس » .

يصعب علينـا أن ندرك بصـورة صحيحـة نظـرية سمعـان اللاهوتـي وبالماس وغيره من الهادئين[2] وتعليمهم عن النور غير المخلوق ، إذا نسينا أن أعماقه اللاهوتية قائمة في التقليد الأرثوذكسي عن الأسرار . تجديد الإنسـان الحقيقي بالمعمودية وبالتالي دمج الوجود البشري كله مع جسد المسيح المتأله في سر الشكر يعطيان الأساس اللاهوتي المتين للرؤية السوية للنور غير المخلوق .

موت الإنسان بعد المعمودية بطاعته لسلطان الخطيئة ليس مظهراً نادراً .

(١) mystique صوفية

(٢) رهبان في جبل آثوس (اليونان) ، دافع عنهم بالاماس . يقولون إن نعمة الله غير مخلوقة . يركزون على الهدوء والصلاة المتواصلة مرددين صلاة يسوع .

لا يعود هذا الى ضعف وعدم كمال المعمودية ، كما يقول مرقس الناسك ، بل الى الإهمال ومحبة الإنسان للشهوة . المساليون[1] ، بالعكس ، يشددون على أن المعمودية لا تجتثّ أسباب الخطيئة المرتبطة إرتباطاً جوهرياً بنفس الإنسان . يعتبر بالماس أن التنكر لإرادة الله بعد المعمودية هو ممقوت أكثر مما هي ممقوتة سقطة آدم . يقول » يتهمون آدم أن مشورة الشيطان قد أقنعته بسهولة ، فتنكر لإرادة الله ، وهكذا صار سبباً لموت البشر . ألا يساوي من أراد قبل الخبرة أن يتذوق فاكهة سامة ذاك الذي أكل منها بعد خبرة الموت ؟ إنه أكثر شقاوة من ذاك الذي أكل دون أن تكون له الخبرة » .

إذا أخطأ الإنسان بعد المعمودية وأفسد صحته وطهارة روحه يعود إلى حالته الطبيعية الأولى ويتنقى من جديد بواسطة التوبة والإعتراف . ليس من المستحيل خلاص المجرم ما دامت إمكانية العودة الى المسيح تبقى قائمة ، المسيح الذي يقيم الأموات .

في موعظة «الظهور الإلهي»[2] شرح بالماس بإسهاب الأمور الحاصلة بالمعمودية تذكيراً للمؤمنين بفوائد المعمودية والربح الروحي الناتج عنها. المعمودية وسر الشكر يحتلان المقام الأول في تعليم بالماس عن تأله الإنسان[3] .

---

(١) المصلون : فرقة سورية من الرهبان في منطقة الفرات : مرفوضون

(٢) أي عيد الغطاس .

(٣) ولذلك يخطأ الأهل الذين يؤخرون معمودية أطفالهم . نرفض الأعذار جميعاً : فلا حداد ، ولا غياب ، ولا ولائم وثنية ولا سواها أعذار مقبولة . بل تعميدهم باكرا ومناولتهم دوما .

سر الشكر

السر الثاني العظيم هو سر الشكر . به يُبنى الإنسان في جسد المسيح ويأخذ بذار عدم الفساد والحياة الإلهية داخلياً . سر الشكر يفترض سر المعمودية . المعمودية تُعطَى للإنسان لتجدده وتؤهله الى الشركة في جسد ودم المسيح . المعمودية تهب الإنسان نقاوة الصورة والمثال بالمسيح مبدئياً . أمَّا سر الشكر فيعمل على إمتداد المثال والإتحاد الكامل بالمسيح . إتحاد الإنسان بالمسيح ، الحاصل بواسطة هذا السر ، يشكل ذروة التعبير وملخصه عن محبة اللّه لنا .

يقول بالماس مرتكزاً على موعظة قديمة قيلت باللغة الدارجة : إن المحبة تفرض تشابه الأشخاص المحبوبين : « كل محبة حاصلة بالمحبة لها كَمَالُهَا . أما المبدأ فهو التشابه » . نجد مِثْلَ هذا المبدأ عند هوميروس وأفلاطون وأرسطو . حسب العهد القديم خُلِقَ الإنسانُ منذ البدء « على صورة اللّه ومثاله » . وقد أعاد تجسدُ كلمةِ اللّه الصورةَ والرباط اللذين تشوّها ، إلى إرتباطهما باللّه ؛ وإعادة الرباط بين اللّه والإنسان تركزت على القربى القائمة بينهما منذ البدء . كانت القربى شديدة بحيث أمكن توحيدها في أقنوم واحد ، كما يقول بالماس .

الإرتباط الحاصل بالمسيح بين الإنسان واللّه ألَّف بصورة خارقة كل علاقة وقربى بشريتين . وبإتخاذ كلمة اللّه جسداً ودماً صار أخاً للبشر ، لا بل صار صديقاً لنا ، لأنه اشترانا من العبودية وجعلنا شركاء ومالكين لأسراره . المسيح ذاته قال لتلامذته : « أنه لا يدعوهم عبيداً بعد لأن العبد لا يعرف ما

يصنعه سيده ، بل يدعوهم أصدقاء لأنه عرّفهم كل شيء سمعه من أبيه » . المسيح هو أب أيضاً وأم للبشر لأنه يلدهم بالمعمودية ويغذيهم كأطفال رضّع لا بدمه بدلاً من الحليب فحسب ، بل بجسده وروحه . بإرتباطه بسر الشكر الالهي مع المؤمنين بجسد واحد يصبح المسيح عريساً للبشر .

إن تشبيه محبة اللّه للبشر بالمحبة الزوجية كان معروفاً ومنتشراً عند كتبة العهد القديم ، وخصوصاً عند لاهوتيي الكنيسة المستيكيين[1]. إن بالماس يعتبر المحبة الزوجية أسمى الشكر الالهي . في الزواج التصاق جسدين بجسد واحد لا في روح واحد ، أما في سر الشكر فالتصاق لا ينحصر في الجسد بل يتعدى الى الروح لنصير معه روحاً واحداً . يا للشركة المتعددة الأشكال التي لا تحد ! لقد صار المسيح أخاً لنا ، فناولنا جسداً ودماً وجعلنا أصدقاء مقربين بإعطائه لنا هذه الأسرار وربطنا ونسّقنا بالمناولة كما يرتبط العريس بالعروس ، وصار معنا جسداً واحداً ، وكذلك صار لنا أباً بمعموديته الإلهية وأرضعنا من الأثداء الأليفة كما ترضع الأم الحنون أطفالها .

الإتحاد في المسيح الحاصل بسر الشكر الإلهي ليس إتحاداً شبيهاً بوحدة كلمة اللّه مع الطبيعة البشرية . إنه ليس إتحاداً أخلاقياً فقط . مع أن المسيح يتحد حقيقياً مع كل إنسانٍ يتقدم بإيمان لهذا السر إتحاداً لا ينحصر في دائرة الأخلاق ، إلاَّ أنه لا يشكل معه أقنوماً واحداً كما حدث في وحدة كلمة اللّه مع الجسد المتخذ . هذا الإتحاد السري هو إتحاد حقيقي مع النعمة المؤلهة ومع فعل المسيح ، لهذا يبقى المسيح دائماً واحداً « كذي أقنوم دائم لا يتجزأ » . بينما الذين هم على « شكل المسيح » كثيرون . إن أكنديندوس بعكس بالماس يقول : « الإنسان بالمناولة الإلهية يشترك بالطبيعة الالهية . من يعلّم أن الذين يتناولون الأسرار الالهية لا يشتركون في الطبيعة الإلهية يقاوم رأي الرسول بطرس وكل الآباء » . الموقف الذي يتخذه أكنديندوس موقف خاطىء مبني على إرتكاز خاطىء وعلى فهم خاطىء للكتاب وللتعليم الآبائي ، لهذا جاء يضادّ

١ـ mystiques : صوفيون .

بجلاءِ العلم المسيحي الأرثوذكسي . وهذا التضاد مرتبط بموضوع الشركة في الله وعدم الشركة برمته .

بإشتراك الإنسان في سر الشكر الإلهي يتحد مع جسد المسيح المؤله ويصير شريكاً في عدم الفساد والحياة الأزلية . وهكذا بالسر هذا يصبح الإنسان جسداً واحداً مع المسيح . إن هذه المعية الجسدية ليست نتاجاً لنتيجة آلية بل هدية تقدمها نعمة اللّه ، فيتقبّلها الإنسان بالروح شخصياً وبحرية . وعلى أساس هذا الإعتبار الشكري علينا أن ندرك العبارات : « الجسد الواحد مع المسيح » في مؤلفات أثناسيوس الكبير وغريغوريوس النيسسي ، أو العبارة : « الجسد الواحد والدم الواحد » في المسيح في تعليم كيرلس الأورشليمي . إن غريغوريوس أكندينوس يُرْجعنا إلى أثناسيوس ويستعمل : « الجسد الواحد » ، عندما يتكلم عن المسيحيين الذين « كجسد واحد مع المسيح » سيدخلون الى المجد السماوي . « إن الإشتراك في جسد ودم المسيح هو إشتراك في جسده المخلوق وطبيعته الغير المخلوقة » (أكنديونس) . أما في نظر بالماس فإن الإشتراك في الأسرار المقدسة هو وحدة مع طبيعة كلمة الله البشرية التي بإتحادها أقنومياً مع الأقنوم الثاني في الثالوث الأقدس تألهت وصارت نبعاً للتأله البشري .

المؤمن بإتحاده مع المسيح يتحول الى هيكل الألوهة المثلثة . كما أن كمال الألوهة يقطن في جسد المسيح ، كذلك الثالوث الأقدس يقطن في الذين صاروا معه جسداً واحداً . « يا للعجب الذي لا تَطَالُهُ مغالاة ! حتى هذه الكيانات البشرية تتحد . كل واحدٍ من المؤمنين يدمج ذاته بمناولته الجسد المقدم ليصير معه جسداً واحداً وهيكلاً لكل الألوهية » . إن نقولا كاباسيلاس نمّى فيما بعد التعليم عن الحياة في المسيح بمناولة الإنسان للأسرار وبصيرورته مشتركاً مع المسيح بجسده .

دمج الوجود البشري المجدد بالمعمودية بالجسد المؤلَّه والمؤلِّه للمسيح

يحوي ، كما سبق وقلنا ، الأساس اللاهوتي لتعليم بالماس عن الرؤية المستيكية للنور الغير المخلوق ، فكما أن جسد المسيح الإلهي عند تجلّيه أنار تلامذته خارجياً ، إذ كان بعد لم يدخل الى أجسام البشر ، فإنه الآن باندماجه وبوجوده في داخلهم ينير أرواحهم داخلياً[1] .

سرُّ الشكر يحوي ، في نظر بالماس ، معنى ورائياً عميقاً . بتناول الإنسان للأسرار الطاهرة ينال ختم شركة المسيح الغير المسبور غورها في الجيل الآتي . ملكوت الله يتحقق منذ الحياة الحاضرة . ملكوت الله هو ملك للمؤمن . المؤمن فيه يعيشه وهو في هذه الحياة الحاضرة . إنه مواطن في الحياة الجديدة والحياة المقبلة . ملكوت الله كشركة مع البشر يتحقق بواسطة سر الشكر . ملكوت الجيل المقبل هو الشكل الكامل للعلامة بين المؤمنين والمسيح روحياً . هذا الطابع الورائي لسر الشكر الإلهي المعروف في اللاهوت الآبائي له معناه في تعليم بالماس عن التأله الإنساني . تأليه الإنسان لا يشكل حدثاً إستقبالياً فحسب بل هو حقيقة حية للحياة الحاضرة . نعمة المسيح الغير المخلوقة المؤلِّهة التي تجعل جسد الإنسان في حالة من الطوعية مع جسد مجده تنزرع منذ الحياة الحاضرة في الإنسان وتعمل على تألّهه .

بالشركة الإلهية يدخل المسيح الى أعماق الوجود البشري ليقدم نعمته المؤلِّهة . وهذا يخلق في الإنسان المؤمن الضرورة لينقي ذاته كما يجب ، ما دام يتأهب للشركة في السر العظيم . بالنقد الذاتي تتحقق التنقية ، وبالتوبة والإعتراف يصل المؤمن الى ما يبتغيه . إستناداً الى أقوال بولس ، يقول بالماس : « على المؤمن أن يمتحن نفسه قبل أن يدخل الى هذا السر وألاّ يتناول بدون إستحقاق . مهما تعب الإنسان لا يستطيع أن يجعل نفسه الغير المستحقة مستحقة موهبة المسيح العظيمة . بالتوبة لا يتحول الإنسان فعلاً بل يتقدم الى الله الذي يجعل الغير المستحقين مستحقين » .

(١) راجع نهاية الملحق .

على المسيحي أن يتقدم الى هذا السر بإيمان عميق ليستأهل نعمة اللّه . بما أن سر الشكر هو سر روحي ، لذلك يجب أن ينظر إليه روحياً . خبز سر الشكر هو نوع من الحجاب يخفي الألوهية . لذلك على المؤمن أن يدخل الى مضمون داخل السر بالايمان وألاً ينحصر في رؤية شكله الخارجي .

إهتام المسيحي لا يجب أن ينحصر في إستعداده للمناولة الإلهية . عليه أن يتجاوز المناولة ويوسع أفق مداها . يجب أن تجد النعمة المؤلهة تعبيرها في حياة المؤمن . بقبول الإنسان للمسيح في داخله يجعله سيد حياته وعلى هذا الأساس يجب أن ينسق أعماله وأقواله وأفكاره وفقاً لإرادة ذلك . يشدد آباء الكنيسة على واجبات المؤمن هذه . يصل الذهبي الفم الى الدعوة الى الصيام حتى بعد المناولة ، أما بالماس فيحذّر من التقلقل بعد مناولة جسد ودم المسيح .

الكنيسة كشركة تأله

قلنا أن الإنسان بمناولته أسرار المسيح يشترك بنعمته الغير المخلوقة ويتحد معه في جسد واحد وروح واحد . وينتج عن هذا الرباط الشخصي المباشر الفردي بالمسيح وحدة حقيقية وشركة فيما بين المؤمنين . وهكذا تقوم قرابة جديدة فائقة الطبيعة وشركة بين المسيح والبشر . تقول الكنيسة : « الجميع بنعمته واحد في الإيمان به ، ونكون جسداً واحداً في كنيسته ، ولنا رأس واحد ، وروّينا بروح واحد من روحه القدوس ، وأخذنا معمودية واحدة ، ورجاؤنا واحد ، وواحد هو اللّه الذي فينا كائن فوق الجميع ومن أجل الجميع وفي الجميع » (أفسس ٤ : ٣ - ٦) .

الكنيسة هي الخليقة الجديدة التي أسسها المسيح المتجسد « ولخّص فيه الكل »[١] . في المسيح التقت الأرض بالسماء ، فتأسست الكنيسة الواحدة ذات الطابع السموي والأرضي ، لا تحوي البشر المؤمنين فقط بل الملائكة الصالحين أيضاً . هدف الكنيسة هو تأله أعضائها لذلك يعتبر بالماس الكنيسة شركة تأله . إن خصوم بالماس بعدم قبولهم بوجود نعمة غير مخلوقة توحّد البشر مع اللّه يهينون أساس التعليم الكنسي الأرثوذكسي .

تأسيس الكنيسة يرتكز على شركة اللّه مع البشر بواسطة النعمة الإلهية

---

(١) اللفظة اليونانية تعني في رومية ١٣ : ٩ « لخّص » وفي أفسس ١ : ١٠ « اعاد » . هنا تعني « أعاد » . ترجمة أفسس ١ : ١٠ الدقيقة هي : « لكي يجمع كل ما في السموات وعلى الأرض ، تحت (رئاسة) رئيس واحد (اي) ، المسيح » (هكذا في سيغوند الفرنسية والروسية الحديثة) . يسوع رأس الكنيسة ونحن جسده . ايريناوس ليون أعار اللفظة كل اهتمامه .

الغير المخلوقة . نعمة اللّه تربط أعضاء جسد الكنيسة مع الرأس وفيما بينهم ، وهكذا تضم إليها كل الكنيسة . لو كانت نعمة اللّه مخلوقة ، كما يقول أخصام بالماس ، لما وجدت شركة حقيقية بين اللّه والبشر ، وبالنتيجة لما كانت هناك كنيسة حقيقية . إذا كان البشر أيضاً لا يشتركون بالنعمة بل بجوهر اللّه فالشركة ليست بشركة تأله ، بل شركة الهة . بإشتراك المؤمنين بنعمة اللّه يشتركون مع اللّه وينالون التأله كهدية . إنهم لا يشتركون بجوهر اللّه لأنهم ليسوا الهة بالطبع ولا في الطبيعة الإلهية .

وحدة الإيمان هي التعبير عن وحدة الكنيسة . الوحدة هذه لا ترتكز على الرسل فقط بل على الأنبياء[1]، أما المسيح فهو حجر الزاوية . لا يقلل بالماس من قيمة معنى التسلسل الرسولي في الجهاز الكنسي ولكنه لا يضحي في الوقت ذاته بالموهبة النبوية . عندما ينسى خلفاء الرسل إتجاههم نحو حجر الزاوية يسوع المسيح ويبطلون أن يكونوا ممثلين له حقيقة لا ينالون كمكافأة القوة الفائقة الطبيعة التي تقف ضد كل ما يبطل إمكانية إنارة وخلاص البشر ، ويمنعون نفوسهم عن أن تكون في الكنيسة[2]. عندما يرتبط الإنسان في الأسرار وفي الحياة في المسيح ويلتصق بكنيسة الأبكار عن طريق الشركة السرية يكون عضواً باراً في جسد المسيح ، حتى لو صدر ضده قرار كنسي من قبل الذين يدعون أنهم يمثلون التسلسل الرسولي . ماذا إذاً أليس الذهبي الفم أباً ؟ ألا يقف في كنيسة الأبكار كاتباً بوضوح وصفاء عن التقوى ؟ وماذا عن أوريجينس ؟ لم يحكم عليه وهو يكتب ويفكر ؟

ما دامت الكنيسة « عموداً وركيزة للحقيقة »[3]، كما يقول الرسول بولس ، فإن الشركة بها هي شركة مع الحقيقة . « أولئك الذين يملكون الحقيقة هم في كنيسة المسيح . أما الذين لا يملكون الحقيقة وليسوا فيها فهم ليسوا في

---

(١) أنبياء العهد الجديد كما في رسائل بولس الى افسس وكورنثوس . . .

(٢) راجع الملحق .

(٣) تيموثاوس الأولى ٣ : ١٥

الكنيسة » . الشركة في الكنيسة تعني الرباط مع الحقيقة ، شركة مع النعمة الإلهية المؤلهة ، حياة في شركة التأله . إذا قطع الإنسان رباطه مع الحقيقة لا ينقطع رباطه عن الشركة في نعمة الله فحسب بل ينقطع أن يكون عضواً في الكنيسة[1] .

هذه النظرة للكنيسة ليست بنظرة تجددية في التعليم الكنسي الأرثوذكسي بل نظرة مرتكزة على روح التقليد الآبائي والبيزنطي . قبل بالماس بكثير يشدّد نيقيطا أستيثاتوس ، التلميذ البار لسمعان اللاهوتي الجديد ، على طاقة وموهبة طابع الكنيسة ، فيصل الى حد توحيد درجات النقاوة وشِركة الإنسان مع الروح بدرجات الرتب الكنسية[2] .

يتكلم بالماس بسبب موقف أغناطيوس الثاني ، بطريرك أنطاكية الموالي لبرلعام في تفكير حول النعمة الإلهية ، (يتكلم) بعنف مرموق ضد رعاة الكنيسة الذين يبتعدون عن الحقيقة الكنسية ، « هؤلاء البشر المدعوون رعاة ورؤساء رعاة ليسوا كذلك وليسوا حتى أعضاء في الكنيسة . إذا كانوا خارج الحقيقة فهم خارج الكنيسة . المسيحية ليست بأشخاص بل حقيقة وصدق إيمان » .

إشتراك الإنسان في الكنيسة ليس ، حسب بالماس ، مظهراً ثابتاً جامداً بل حقيقة فعلية . ليست نتيجة لموهبة مخلوقه يملكها الإنسان مرة ويحتفظ بها فيما بعد كحق من حقوقه ، بل ثماراً لشركة حقيقية مع النعمة المؤلهة الغير المخلوقة . بالمعمودية والمسحة وسر الشكر يتجدد الإنسان وينغرس في جسم

---

(١) راجع الملحق .

(٢) أغناطيوس الأنطاكي ، هو صاحب أول إشارة الى ذلك . ثم وسَّعها ديونسيوس المنحول . إنما نيقيطا المذكور هو على خطى مكسيموس المعترف الذي نعرض أمره في الملحق . وقد صوَّر صراع معلمه سمعان (مع كاتب المجمع استيفانوس ومحازبيه) بصورة مصارعة القديس ثيوذوروس الستوديتي لمحاربي الإيقونات . فسمعان قاوم الكاتب أولاً والمجمع ثانياً ، تمسكاً بتقديسه أبيه الروحي سمعان التقي (نيقيطا ، حياة سمعان : ٧٢ ـ ١٠٠) .

الكنيسة في الوقت الذي يكون فيه مخادع هذا العصر يوحي بما يهدد بخطر السقوط والقطع منها .

خطر السقوط هذا لا يوجد فقط لأعضاء الكنيسة بل لكل الرعية المسيحية . الطريق الوحيد للعودة هو طريق التوبة ، أي التنكر للكذب وعودة الإرتباط بروح الحقيقة[1] .

(١) النص غامض . يحتاج إلى الحاشية التاريخية التالية التي جعلناها ملحقاً للكتاب فراجعها .

طابع التأله الأخلاقي

أسرار الكنيسة تجدّد الإنسان وتجعله عضواً في جسد المسيح . بإشتراك الإنسان في حياة جسد المسيح الجديدة يسلك في حياته الأرضية وفقاً لما تفرضه هذه الحياة . حياة المؤمن الأخلاقية لا تشكل حدثاً ذاتياً مستقلاً بل ثمرة من ثمار الشركة في المسيح . بتطبيق إرادة اللّه وبالمران على الفضيلة يعبر الإنسان عن رباطه مع المسيح ويحفظ نفسه كوعاء قابل لقوة ونعمة اللّه المحددة . بيد أن الحياة الأخلاقية كقبول فعّال لدعوة اللّه السامية « للعمل معاً » تشكل قضية جوهرية لتأله الإنسان ، ولكنها ليست قضية إمتلاك وليست حقاً يُعطى كحق . التأله هو هدية . أكثر الناس براً يقبل التأله كهدية من قبل اللّه . إننا نتألم من أجل التأله كشيء يفوق الطبيعة لكننا لا نستطيع أن نصنعه »[1] .

طابع الحياة الأخلاقية

الدخول الى الكنيسة والرباط في المسيح يقدم للإنسان بدء الحياة الجديدة . النعمة المؤلهة الغير المخلوقة التي يمتلكها لا تنحصر في داخله كهدية مخلوقة بل تنتشر قدرة في الحياة في المسيح . النتيجة الأخلاقية الأولى الفورية التي بها أعاد إرتباطه بنعمة اللّه هي قطع علاقته بالخطيئة ، والخطيئة مرتبطة دائماً بالإبتعاد الحر عن اللّه . بمحافظة الإنسان على شركة لا تنفصم مع اللّه يبقى غريباً عن الخطيئة . خُلِق الإنسان من اللّه ليعيش بلا خطيئة « على صورة للّه » يتبعه الإتجاه نحو تقديم الإنسان ذاته الى الله، وعدمُ الخطيئة[1] . اللّه ليس

(١) راجع « المزيفون » .

(٢) النص غامض . المقصود : خلق الله الإنسان ليعيش بلا خطيئة ، إذ هو على صورة الله . فمن واجبات الإنسان أن يقرّب ذاته لله قرباناً زكياً ، وأن لا يرتكب أي خطيئة .

بخالق لا للشر ولا لأسبابه ، أي الخطيئة . الخطيئة هي نتاج متخلّف ومخالف للطبيعة . ببقائنا حسب الطبيعة نتوجد في طريق الفضيلة ، وبإبتعادنا عن الفضيلة ننقاد الى ما هو مخالف للطبيعة فنفعل الشر .

في التحديد المعاصر غالباً ما ينظرون الى الحياة الأخلاقية والإنسان الأخلاقي كقيدين للحياة الطبيعية والإنسان الطبيعي . الإنسان الطبيعي هو الذي يتكيف وفقاً لأهوائه وضعفه . والحياة الطبيعية توصف أيضاً كذلك . أما الإنسان الأخلاقي فهو الذي يتنكر للحياة وحياته تعتبر غير طبيعية . هذه النظرة الى الأمور تعتبر غير طبيعية ومخالفة لتعليم آباء الكنيسة . الحياة الأخلاقية هي الأخلاق الطبيعية في نظرهم والإنسان الأخلاقي هو الإنسان الطبيعي .

ما عدا قوة الإنسان الداخلية لممارسة الفضيلة تقوم منذ البدء إمكانية إنعدامه . كإنسان حر إرادياً يمكنه أن يبتعد ساعة يشاء عن اللّه ويحيد عن الطريق الذي سيقوده لتحقيق مصيره . هذا ما فعله الإنسان منذ تجاوزه لإرادة اللّه . تاق أن يصير إلهاً فثار على خالقه والتصق بالشرير . كان لهذا الحدث نتائجه المدمرة ، إلا أن الطبيعة البشرية بالرغم من ذلك بقيت صالحة بجوهرها . الإنسان الساقط ليس « مسيراً للشر ذاتياً » ، إنه يميل إليه تحت تأثير تجربة الشرير . لا تسبب الموت تجربة إبليس . المساليون[1] وحّدوا التجربة والخطيئة . الأرثوذكسية تقول بأن الخطيئة تفرض مسبقاً موافقة الإنسان لكي تتحقق .

بخضوع الإنسان للفساد والموت يصبح الإنسان عبداً للخطيئة فتنخره بمنخازها . الإنسان يستطيع أن يفعل الخطيئة إذا كان بعيداً عن نعمة اللّه . « بدون فعل اللّه فينا ، كل ما نفعله خطيئة » حتى عندما يحاول الإنسان أن يفعل الفضيلة . عمل الفضيلة البعيد عن نعمة اللّه يقود الى العجرفة وحب الذات . يعجز الإنسان كما يقول بالماس عن التغلّب على

(١) بدعة المصلين .

تجارب الجسد والنفس والمجد الفارغ إذا كان بعيداً عن اللّه ، وإذا ما إستطاع الى حين أن يرتفع الى ما فوق هذه الأمور ، فإن الإنتفاخ بسبب إعتقاده بصيرورته كاملاً يستولي عليه ، وهكذا يسقط في الفساد من جديد .

ينعتق الإنسان من هذه الحلقة الفاسدة بإشتراكه في الحياة في المسيح . بموته وقيامته مع المسيح يعود إلى حالته الطبيعية ويبتدىء من جديد في سيره نحو اللّه[1] . ميلاد الإنسان من جديد وتغيير سيره من الشر الى الخير يتم بفعل تحويله النفسي من ضد الطبيعة الى الطبيعي ، وبإحلال العشق الإلهي محل الهوس الشرير . بإنعتاق الإنسان بنعمة اللّه وبقبوله الشخصي أن يتحرر من سلطان الخطيئة وبتحلله من كل رباط مع الشيطان ينتهي الى مخطط اللّه الموضوع من أجله بتطبيقه وممارسته للفضيلة ، لفعل صورة اللّه الطبيعية التي تجدَّدت بالمسيح في الإنسان ، والمدعوة لأن تصاب بالتأله[2] .

من السهل أن يُساء فهمُ معنى الإقتداء بالمسيح الذي نصادفه كثيراً في الأخلاق والعلم عنه . إذا قبلنا أن الإنسان يمكنه من ذاته أن يقتدي بالإله المتأنس فإننا نقيم وزناً لقوى الإنسان أكثر مما تستحق ، فنتبع بذلك هرطقة بلاجيوس وميسليانوس . أما إذا طرحنا جانباً الإقتداء بالمسيح فإننا نقطع معنى « العمل المشترك » ونهمل تعليم الكتاب وآباء الكنيسة . إن الإقتداء بالمسيح حسب التقليد الأرثوذكسي وبالماس يدرك « كتعاون » ، كعمل مشترك يقوم به الإنسان المجدد بالمسيح مع فاعل التجدد للحصول على التشبّه باللّه .

إن الشبه باللّه لا يتحقق عن طريق تقليد طبيعي فقط بل بقدرة الروح القدس التي تعطى للإنسان عند المعمودية . المعمودية تهب بدء حياة التجديد

---

(١) التراث الآبائي يقول : الخير في الطبيعة والشر هو على خلاف الطبيعة . راجع العرض الرائع في Myrrha Lot-Borodine, la déification de l'homme, éd. du Cerf.

(٢) بالاماس متأثر هنا جداً بمكسيموس .

في المسيح وهذه الحياة تنمو بالنعمة وبنعمة المسيح والأسرار التي ترافقه طوال حياته على الأرض[1].

ليست نعمة اللّه سبيلاً مخلوقاً تُخْلَقُ به بعض النقاط المعنية لتماسٍ بين اللّه والإنسان، بل فعلاً إلهياً غير مخلوق يروي كل إنسان ويخترقه. وهكذا يربط الإنسان كل حياته بالمسيح . هذا الرباط يتحقق سرياً . أسرار الكنيسة تقدم الأساس والمنطلق وشبكه هذا الرباط السري . يستحيل الخلاص بدون الإشتراك بأسرار المسيح ، لا بل إن الخلاص لا يتحقق بدون طواعية الحياة والعيش حسب منطوق النعمة والأسرار . الإنسان لا يعيش سرياً كشريك فقط بل كشريك في أسرار المسيح .

إشتراك الإنسان في موت وقيامة المسيح لا ينحصر في مراحل معينة من الحياة فقط بل يتسع بالقدرة ويغطي كل مراحل حياة الوجود البشري وأشكاله . جسد يسوع المصلوب المقدم لمأكل المؤمنين لا يغذي فقط ، كما يقول بالماس ، بل يعلمهم شركة فضائل وآلام المسيح المصلوب . إنه يرشد الى المحبة والتواضع والطاعة وموت الأهواء والى الحياة في اللّه . الشركة في أسرار الكنيسة والحياة الأخلاقية يؤلفان سر الحياة المسيحية .

الحياة المسيحية تولد من النعمة وتنمو بالنعمة الإلهية . في شخص المسيحي يحيا ويعمل المسيح ذاته . إن عمل وموعظة تلامذة المسيح يشكل بالجوهر إعلاناً وتعبيراً عن المسيح القاطن فيهم وبالتالي كل فضيلة بالتجدد في المسيح هي في الحقيقة هدية من اللّه . هذا الحدث لا يثبت معنى تعاون الإنسان في عمل التأله بل يرفعه أكثر فأكثر لتناسق كامل مع النعمة المؤلهة[2].

---

(١) لوسكي انتقد مفهوم الأقتداء بالله (اللاهوت الصوفي، ص ٢١٢). الا أن مكسيموس وسمعان وبالاماس ركّزوا عليه جداً.

(٢) أي نعمة الله وإرادة الإنسان الحرة تلتقيان : كما التقت الإرادتان والفعلان الإلهي والبشري في شخص يسوع (راجع سر التدبير) .

عدم خطيئة الإنسان المسيحي هو نتيجة وإستمرار للتجدد في المسيح « وشركته مع كنيسة الأبكار » . « كل معمد يريد أن يحظى بالغبطة المرجوة وبالخلاص يجب أن يعيش خارج كل خطيئة » . بإعادة إرتباط الإنسان بنعمة اللّه وببقائه فيها يحيا في عصمة من الخطيئة . لقد سبق يوحنا الإنجيلي وكتب في رسالته الأولى : « من يبقى في المسيح لا يخطىء » من يفعل الخطيئة ففعله من الشيطان لأن الشيطان أخطأ منذ البدء . البقاء في المسيح والمعبّر عنه في حياة المؤمن بطرق عديدة يظهر كعصمة من الخطيئة ، أي كتلك المرحلة من التشبه باللّه والتطور الروحي التي فيها يميز الإنسان بالغريزة الشر والخطيئة ويتجنبهما . رباط الحياة المسيحية والعصمة عن الخطيئة يمكن أن يجدهما المرء بسهولة في تعاليم الآباء والكتبة الكنسيين مثل أغناطيوس المتوشح باللّه وأقليمس الاسكندري وأريجينس حتى مكسيموس المعترف ويوحنا السينائي[1] وسمعان اللاهوتي الحديث .

والحالة هذه يمكن أن يتساءل المرء بحق : ما هي العلاقة الممكنة بين المسيحي والخطيئة ؟ إذا كان الإنسان يتحرر من الفساد والموت بإشتراكه في موت وقيامة المسيح ويصبح غالباً للخطيئة والشيطان ويحصل من جديد على عصمته الطبيعية من الخطيئة التي وهبها اللّه له ويتجه بالنعمة الإلهية العاملة فيه للتشبه باللّه ، فكيف نفسر حالته الخاطئة ؟

في الواقع الخطيئة تعني إنقطاع الشركة مع الله والخضوع للشيطان . أما الشركة مع المسيح فبالعكس ، ويعبر عنها بعدم الخطيئة والقداسة . بإبتعاد الإنسان الحر عن اللّه يخضع للشيطان . إلاّ أنه بالتجسّد الإلهي يدخل الإنسان الجديد الى العالم ، يبتدىء بعصر ملكوت الله . بقبول الإنسان لبشارة المسيح بحرية وبصيرورته عضواً في جسده يدخل عصر اللاخطيئة الجديد والقداسة ، ومع ذلك يبقى في العالم الخاطىء هذا ويحيا متقبلاً هجمات القوى الشيطانية . إنه يشترك في حياة المسيح وعدم الفساد ، بيد أنه يستمر حاملاً

(١) هو كاتب « السلّم الى الله » (ترجمة دير الحرف) .

جسداً ميتاً قابلاً للآلام . يشترك في نعمة المسيح الغير الفاسدة المؤلهة التي تقوم مقام العربون ، لذلك تنتظر كمالها وظهورها عند ظهور المسيح ولكي تستأهل هذا الظهور تخضع لتوجيهات اللّه .

تبشير بالماس كما يلاحظ كيرن تبشير صراع لتحسين شخصي وتهيئة لإستقبال المجد المزمع . آلام الحياة والمصائب والموت أيضاً لا تثني عزيمة المؤمن بل تقويها لأنها تقدم فرصاً لتحسين روحي وتقوده الى الغبطة . إن الموشور الذي به يرى الألم وعلى الأخص الإستشهاد من أجل حقيقة هو شهادة لها معنى أخروي[1]. هذه المتاعب تتحول إلى نار مطهرة تزداد بها نقاوة النفس وتصبح وعاء للروح أكثر قابلية وسعة . الخطيئة هو الشر الذي يجب أن يخشاه الإنسان في هذا العالم . الخطيئة وحدها تستطيع أن تبعد الإنسان عن اللّه . كل شيء يمكن أن يعمل لتوبته وعودته وإصلاحه . « لا شيء شرير غير الخطيئة في الحياة . إنها تسبب كل الشرور حتى الموت » .

لهذا السبب بالذات يلاحظ بالماس ويقول : مع أن اللّه يعيد ولادة الإنسان بالمعمودية ويختمه بنعمة الروح ، فإنه يترك جسده ميتاً قابلاً للآلام ويسمح للشيطان أن يمتهنه من الخارج.فيتمرن على الفضيلة وعمل الخير وفي الوقت نفسه يستعد لقبول عدم الفساد والتأله في الجيل الآتي . وحيث أن الإنسان بقلة إيمانه وبخداع الجيل الحاضر ينجرّ ويخضع للخطيئة . لذلك أعطي سر التوبة الذي به يتحصّن عمل الكنيسة الخلاصي من أجل البشر في وجودهم بين الجيل الحاضر والمستقبل ومن ناحية أخرى تبقى نقاوة جسد المسيح بدون دنس . ما دامت حياة الإنسان كلها خاضعة للخطيئة فمن الضروري إذاً أن يعيش الإنسان حياة يقظة ، حياة توبة ، طالباً الفرح الإلهي .

(١) eschatologique

مساهمة الإنسان في عمل اللّه التجديدي والتألهي لها طابع وجودي لا عقلاني . إن بالّماس بعكس بارلام . هذا يعتبر أن الفلسفـة فرض ضروري لكمال الإنسان ، الإنسان كله يحاول بكل قواه طوال حياته أن يعمل ويسهم مع اللّه لتحقيق مصيره . وذاك يعتبر أن وجودها لا يقدم ولا يؤخر في تقويم الإنسان ، بل يمكن أن تصبح هدّامة إذا تحولت الى هدف بحـد ذاتهـا . لو كانت الثقافة الخارجية ضرورية لتقويم الإنسان ولمشابهته باللّه ، لكان الحكماء اليونانيون أكثر كمالاً وأكثر رؤية من الأنبياء والبطاركة . وهؤلأ كانوا يفتقرون الى ثقافة بشرية . يؤكد بالماس بصورة خاصة على يوحنا السابق ، قمة الأنبياء والرسم القديم للمتوحدين ويقـول : أنـه أحـرز كمالـه بعيداً عن أية ثقافـة وإهتمامات عالمية .

التقويم وتجديد الإنسان ، حسب تعليم بالماس ، لا يتعلقـان بالنمـو والإمكانات العقلية أو بدقة معرفة الأمور الطبيعية ، بل بنقاوة القلب وتطبيق إرادة اللّه . بقبول المؤمن نعمةَ الروح القدس المجدِّدة المؤلِّهة ، وبمحافظته على شركة اللّه الحية بتطبيق وصاياه ، يجـد نفسـه على الطـريق الراسـخ للـكمال والتألّه . أولئك الذين يقولون بإمكانية العثور على الصورة والثقافة الإلهّية على أساس المعرفة الفلسفية يسميهم بالماس ساخراً « بعارفي الصور »[1].

ما هو الطريق الذي يجب أن يسلكه الإنسان لينقّي قلبـه تنقية ناجعـة وينسّق إرادته وفقاً لإرادة اللّه ؟ في الواقـع أن البشر كلهـم كعبيد للخطيئـة

(١) بالاماس أورد نصوص الآباء (منذ باسيليوس) التي تتهكّم على حكمة العالم .

ينوجدون في حالة مرضية متشابهة غير طبيعية نوعياً . مع ذلك كل إنسان ، كشخصية حرّة مستقلّة يعبّر عن عادة أخلاقية خاصة تماماً وحرّة . ولكي يصبح الشفاء ناجعاً ويفسح المجال لإمكانية نمو وتحسين الإنسان فيما بعد يجب أن تبتدىء التربية الشافية من حالته المرضية الإيجابية . لذلك فالتوبة هي الطريق الراسخ لشفاء وتقويم الإنسان .

ليست التوبة قابلية وقتية بل طريقة حياة . التوبة هي سير الإنسان عائداً الى اللّه الذي إبتعد عنه بسبب الخطيئة . بدء التوبة هو الإعتراف بالخطايا . لا شك أن الإنسان يتوب إذا ما اعترف والتوبة لا تعني إعلان الخطايا صراحة أمام الأب الروحي[1] .عملية الإعتراف تشكل المرحلة الأساسية الجوهرية لطريقة حياة الإنسان الجديدة ما دام ينال بها شفاءه وتنقيته نفسياً . بعد الأعتراف تبتدىء مرحلة الحياة الفاضلة في المسيح .

بشعور الإنسان بمرضيته الشخصية الأكيدة وبقبوله غفران ورحمة اللّه يشق خط إبحارٍ يُحُدَّد سلبياً بالإبتعاد عما حرّمه اللّه وإيجابياً بالمحبة والإلتصاق بالمسيح . يقول بالماس : رأس التوبة هو الإبتعاد عما حرّمه اللّه . أما تطبيق إرادة اللّه كتعبير عن محبة المؤمن ومحاولته لإنماء الشركة معه والمحافظة عليها نامية ، يشكل أيضاً عنصراً أولياً من عناصر حياة الإنسان الجديدة . إرادة اللّه تُرى واضحة أمام أعين الإنسان في الوصايا التي أعطاها اللّه وفي رسم حياة المسيح على الأرض . التشبّه بحياة المسيح يشكل شرطاً لازماً للمؤمن . المسيح الجالس في مجد أبيه يدعو مؤمنيه ليتقيدوا بمسلكه على الأرض ويتبعوا طريق المحبة والتواضع [2] والطاعة[3] والقداسة وعدم الخطيئة التي كان هو أول من اتبعه .

بعض القضايا المعينة ذات الطابع العملي لا تشكل حيِّزاً خاصاً في

(١) الأعتراف جزء من التوبة . التائب يعترف بخطاياه في عزم قاطع ملتهب على تبديل سلوكه جذرياً ونهائياً .

(٢) سمّى سمعان التواضع « التواضع المؤلّه » (المواعظ ٢٠ : ١١٧) : رائع .

(٣) أنظر السلّم الى الله : ٥ .

مؤلفات بالماس اللاهوتية . يعالج بالماس في مؤلفاته القضايا اللاهوتية الكبرى التي طرحها أخصامه على طريق البحث . إلاّ أنه كرئيس أساقفة سالونيك ، كان على إتصال دقيق بحياة المؤمنين العملية ومشاكلهم وشعر كراعٍ بضرورة إعطاء الأجوبة الناجعة . نجد مادة غزيرة من هذا النوع في مواعظه التي كان يوجهها الى مؤمني سالونيك .

كتابه « الوصايا العشر وفقاً لشريعة المسيح ، أي العهد الجديد » هو موجز للأخلاق المسيحية ينطلق من وصايا موسى العشر وينتهي ليكون ثمرة من ثمار حياة بالماس الرعائية .

الموضوع الأول من حيث الأهمية في كتابه هذا هو محبة الله الثالوثي الأقانيم . المحبة هذه هي السبب في إتمام الإنسان لوصايا المحبوب . محبة الإنسان لله يجب أن تكون كاملة ونابعة من كل وجوده . أحبب الرب إلهك وحده من كل قلبك وذهنك وقوتك ، ولتكن أوامره وأقواله في قلبك ، فتعمل بها وتدرسها وتهذ فيها . محبة اللّه هي أصل كل الفضائل ، بعكس محبة العالم التي تسبب كل الشرور . محبة اللّه ومحبة العالم هما قطبان عكسيان يحددان سلبياً وإيجابياً مضمون حياة الإنسان الأخلاقية . سبب محبة الإنسان للعالم ينبع من محبته لجسده ، ومحبة الإنسان لروحه تولد بالعكس محبته لخالقه[1] .

بين الفضيلة ومحبة اللّه يوجد طباق ثابتٍ . بمحاربة الإنسان لأهوائه وبممارسته للفضيلة يحرث المحبة نحو الخير ، المحبة نحو نبع وسبب الصلاح ، نحو اللّه . المسيح ذاته يقول : من أحب اللّه يحفظ وصاياه ومن حفظ وصاياه أحبه . إن محبة اللّه هي بدء وسبيل وقمة حياة المؤمن الأخلاقية .

ثمار محبة اللّه هي محبة القريب . محبة القريب دليل على محبة المؤمن للمسيح . وهكذا نرى التعليم المسيحي عن المحبة لا يتبخّر في تأملات سلبية

---

(١) تحتل المحبة لدى مكسيموس أهمية كبرى . سمعان ألحّ على حفظ الوصايا . الكاتب اليوناني أهمل الصلاة التي هي لدى كثيرين : قائدة جوقة الفضائل وأمها . . .

لاهوتية بل تعود الى اللّه الحي الى إله المحبة وتعطي شهادتها للعالم عن طريق محبة القريب .

بإنطلاق بالماس من الوصية الموسوية الثانية ، « لا تصنع لك تمثالاً . . . » ، يتكلم عن السجود المكرّم للأيقونات والذخائر المقدّسة . يقول بالماس : نسجد « لمن صنعنا أولاً على صورته وثانياً لصورته التي رسمها فينا مسروراً برحمته التي لا تحد » . أما السجود للذخائر المقدسة فإنه يرتكز على علاقتها بالنعمة المؤلهة التي بإتحادها مع الإنسان ككل لا تنفصل عن جسده بعد الموت بل تبقى فيه ، كما أن ألوهة المسيح لم تبتعد عن جسده المحيي حتى عند موته على الصليب بل بقيت متحدة به .

وبإنطلاقه من الوصية الموسوية الثالثة ، « لا تحلف باسم الرب . . . » ، وبذكره لوصية المسيح المكتوبة ، « لا تحلف البتة » ، ينتهي الى رفض القسَم رفضاً باتاً . الذي يحلف يتعرض دائماً لخطر تجاوز قسمه والحلف يعني جوهرياً نكران اللّه . يقترح بالماس على الذين يقسمون أن يتموا ما يفرضه القسم بأمانة وصدق وحتى في هذه الحالة يكونون قد تجاوزوا وصية اللّه .

كما أن اليهود كانوا في العهد القديم مجبرين على تقديس يوم السبت ، كذلك توجب على المؤمنين أن يقدسوا يوم الأحد . كان يوم السبت يوم إستراحة اللّه . صار الأحد بدلاً من السبت لأن فيه قام المسيح توكيداً لقيامة البشر العامة . لمعنى الأحد حسب بالماس وحسب الترتيب القديم معنى ورائي . « إنه اليوم الذي يتوقف به كل ترابي عن العمل » . إنه رسم بدء الجيل الآتي الذي ترسمه بكماله المرحلة الخمسينية[1]، بعكس مرحلة صوم الأربعين التي تعني إبتعاداً عن الطعام وصراعاً وحزناً وتمثّل الجيل الحاضر . كرسم لبدء الجيل الآتي يدعو يوم الأحد المؤمنين للإستعداد لإستقباله . ويتحقق الإستعداد

(١) أي من الفصح حتى العنصرة .

بإعادة تحصين المؤمن أخلاقياً بمناولة سر الشكر وبدء حياة دقيقة .

إن تقديم واجبات الإحترام للوالدين ضرورة أساسية للمسيحي . على الإنسان أن يحب والديه بعد الله . الوالدان هم علة وجوده بعد الله . محبة الوالدين يجب أن تخضع لمحبة الله وتتقوّى بها . عندما تصبح محبة الوالدين ثقلاً على حساب محبة الله ، فالمسيحي مدعو لتفضيل محبة الله على محبة الآباء ، لا بل يدعى ليتجنّب ويكره كل قرابة جسدية وصداقة من أجل إسمه . إذا كان المؤمنون مجبرين على محبة وإحترام والديهم بالجسد ، فإنهم مجبرون أكثر على إحترام آبائهم الروحيين الذين قادوهم من الفساد والخداع الى القيامة والحقيقة المسيحية .

يتكلم بالماس إستناداً على الوصية « لا تزن » عن علو ومعنى حياة البتولية . تقدمة المؤمن الإجماعية لله تصبح إجماعية عن طريق هذه الحياة . في نظر بالماس عدم الزواج له طابع أخروي لأنه تشبُّه بحياة السماء وإشتراك مسبق في طريقة حياة أبناء الجيل الآتي . « الإنسان يريد أن يكون ملاك الله وأن يجعل حياته هنا كحياة أبناء القيامة وفوق كل إختلاط جسدي » . حياة البتولية لا ترقى الى الملائكة فقط بل الى الله الثالوثي الأقانيم . « من يعشْ حياة البتولية يشبه الآب الوالد بالبتولية قبل كل الأجيال والإبن الذي جاء ولادياً من الآب البتول والروح القدس الذي جاء من الآب لا ولادياً بل إنبثاقاً » . بعد أن دخل الزواج الى العالم بسبب معصية الجدين الأولين بورك من الله[1] .إلاّ أنه ليس الطريقة المثلى للكمال البشري لأنه يربط الإنسان بإهتمامات الحياة ويجعل تطبيق الفضيلة صعباً .

تطبيق وصايا الله يرفع المؤمن الى خالقه ويعمل على مشابهته ، أمّا تجاوزها فإنه يبعد الإنسان عن الله ويجعله مشابهاً للشيطان . القتل والنميمة

---

(١) بالاماس على رأي القائلين بأن آدم وحواء كانا بتولين في الجنة (راجع سر التدبير ، ص ٨ ونهج البلاغة وشرحه للامام محمد عبدو ، ص ٢٣) . والبحث طويل وهام لدى مكسيموس .

يُعتبران تجاوزاً لإرادة اللّه ويقودان للإمتثال لإرادة إبليس . من يقتل يبرهن بعمله أنه غريب عن اللّه الذي يحيي الأموات ، ويصبح إبناً لقاتل الإنسان بدءاً [1]. وكذلك النمام يشبه إبليس لأنه هو أول من نمّ لحواء ضد اللّه .

لكي يخُضع الإنسان إرادته لإرادة اللّه وينسّق حياته وفقاً لأوامره يجب عليه أن يقهر نفسه . ومع أن الإمتثال لإرادة اللّه بالقهر هو مطلب لازم وضروري للبدء في الحياة بالمسيح ، إلاّ أنه ليس الطريقة المثالية للحياة الأخلاقية . بتطبيق وصايا اللّه وبتعوّد الإنسان الملحّ على محبته للّه وبإبتعاده عن الشرير تتولد عدة ممتازة، هي عادة عدم الآلام[2] التي يحوز عليها النساك.

هذه العادة لا يمكن أن تتحقق لا خارج العالم ولا داخله إلا بالمران والصلاة.

---

(١) أي إبليس .

(٢) الأصحّ : عدم الهوى apathia

الملحق التاريخي

بين الأعوام ١٣٤١ و١٣٤٧ نشب في بيزنطية صراع سياسي وحرب أهلية . يوحنا بطريرك القسطنطينية كان طرفا فيها . أما غريغوريوس بالاماس فكان رجل العناية الإلهية . تسامت نفسه الكبيرة فوق كل العنعنات والحزازات . كان رجل الحقيقة المطلقة . كان رجل الصدق والنبل . تحوَّل الى داعية سلام ، فكان محطَّ ثقة المتنازعين على السلطة ، كان الوطني الأكبر الممتلىء نبلاً وشرفاً . قطر وراءه رهبان جبل آثوس العظام وجمهور الشعب التقي . ألم يكن الرهبان والشعب قوة الكنيسة عبر التاريخ ؟

لأسباب تاريخية ، أضحى بطاركتنا ، منذ أيام الصليبيين ، هم وبطاركة القدس مرتبطين جداً ببطاركة القسطنطينية . وما زال الموضوع بحاجة الى دراسة مستفيضة يقوم بها مستشرقون ضليعون من لغات العصر ذاك .

في ٤/ ١١/ ١٣٤٤ حضر أغناطيوس الثاني بطريرك أنطاكية وبعض أساقفته مجمعا للباطل عقده يوحنا بطريرك القسطنطينية . أصدر هذا المجمع الذميم حرما ضد بالاماس ما لبث جراسيموس بطريرك أورشليم أن وافق عليه منضما الى قافلة الضلال .

رفض بالاماس الحرم وطعن فيه بكتابات لاهوتية تفنّده . وكان بطريرك أنطاكية أغناطيوس ملكيا أكثر من الملك ، فزاد على قرار مجيمع الزور والبهتان والباطل تصريحا مكتوباً يندد ببالاماس . ودخل بالاماس السجن .

ولكن سرعان ما تبدّل الزمان . فانعقد في ٢/ ٢/ ١٣٤٧ مجمع الحق ،

فأسقط البطريرك يوحنا والأساقفة المتخاذلين ، فسقطوا من مناصبهم . وتم ملء الشواغر سريعا ، فأنعم الله على سالونيك (اليونان) ببالاماس رئيس أساقفة لها .

بالاماس رجل الحقيقة الكاملة بدون مساومة . دان خصومه من بطاركة وسواهم بجرأة الشهداء . أعتبرهم ساقطين من عضوية الكنيسة ، لأنهم وضعوا أنفسهم خارج الحقيقة . وأعتبر قراراتهم لاغية لأنها مخالفة للحقيقة [1].

في اللغة الحقوقية المعاصرة نقول : المجيمع وقراراته غير موجودين Inexistants ، كأنهم لم يكونوا قط . وكل أرثوذكسي مكلَّف أن يرفضهم ويعتبرهم منعدمي الوجود ، أياً كان مُصْدِرُهم . ففي الحقوق المعاصرة ، إن كان قرار محكمة ما منعدم الوجود رفضت دوائر التنفيذ وكل السلطات تنفيذه بدون حاجة لقرار معاكس من محكمة أخرى .

وللقضية في التاريخ شواهد . وقف الحكام ورجال الدين ضد أثناسيوس أسقف الأسكندرية . ولكن الكنيسة دانتهم وأحتفظت به قاعدة للإيمان . مجيمع الباطل المنعقد ضد يوحنا الذهبي الفم تحت السنديانة دان الذهبي الفم ، فدانت الكنيسة مجيمع الباطل ، ولمع في التاريخ يوحنا فم الذهب . ورفضت مجمع ٤٤٩ لأنها لم ترَه ذا إستقامة إيمان .

وما كانت أزمة القرن السابع بأقلّ ضراوة من سابقاتها . ولكن قيَّض الله لكنيسته الراهب صفرونيوس [2] الذي زلزل الدنيا من تحت سرجيوس [3] بطريرك القسطنطينية . وخلف مكسيموسُ المعترفُ أستاذَه صفرونيوسَ

١ ـ الدكتور اسد رستم ، تاريخ الكنيسة الانطاكية ٢ : ٣٢٧ ـ ٣٢٩ ، نشرة بطريركية الروم الارثوذكس ، عدد نيسان ١٩٧٣ ، ص ١٩ ـ ٢٠ . اثما كتاب الأب جان ما يندورف ، المعنون المدخل الى دراسة بالاماس ، هو اصحّ وأكمل : راجع ص ٩٥ ـ ١٣٤ و١٤٥ ـ ١٤٦ و٧٤ و٩٤ و٩٦ ـ ٩٧ من ترجمته الانكليزية .

(٢) دمشقي المولد . صار بطريركا على اورشليم .

(٣) كان سوري الاصل على المذهب اليعقوبي .

المذكور في المعركة ، فكان شهيداً حياً . كان عليه أن يفصل نقطة وجدانية : إنقاذ العقيدة الأرثوذكسية أو إنقاذ الأمبراطورية بفضل هرطقة الفعل الواحد والمشيئة الواحدة . تدبَّر الأباطرة السلطات الكنسية إجمالا ، إلا أنهم فشلوا وزلمهم في شراء سكوت مكسيموس الراهب .

وكان البابا ڤيتاليوس قد أرسل رسالة مجمعية الى بطرس بطريرك القسطنطينية بدون أن يتعرض فيها للمسائل العقائدية . توهّم بطرس أن ڤيتاليوس قد وافق على البدعة . وكان بطاركة الأسكندرية وأنطاكية والقدس موافقين على البدعة . توهم بطرس ، إذاً ، أن البطاركة الخمسة متحدون .

وكان مكسيموس سجينا . فأتى بطرس السجن ودخل قاووش مكسيموس ، ثم قال له :

« من أية كنيسة أنتَ ؟ أمِنْ كنيسة القسطنطينية أم روما أم أنطاكية أم الأسكندرية أم أورشليم ؟ أنظرْ : إنهن وأبرشياتهنَّ قد إتحّدن* . فإن كنتَ من الكنيسة الجامعة ، فإتحد أيضاً » . فأجابه مكسيموس : « إن اله الكون ، إذ أعلن بطرس (الرسول) مغبوطاً لأنه أعترف به أصولاً ، قد أبان أن الكنيسة الجامعة هي الاعتراف به (أي بالله) إعترافا مستقيما خلاصياً » .[1]

هدَّده البطريرك إن لم يذعن : الأمبراطور والبطريرك مصممان على إيقاعه تحت الحرم بأمر البابا .

أجاب : « ما حدّده الله منذ ما قبل الدهور ، فليجدْ فيّ نهايته ، رافعاً إليه مجده الذي يعرفه منذ ما قبل الدهور » .[2]

وفي العام ٦٦٢ إنعقد مجيمع المراطقة وحكم على مكسيموس بالجلد . ثم تمّ إقتلاع لسانه وقطع يمناه . فتوفاه الله في العام ٦٦٢ عن ٨٢ عاما[3] .

* يقصد بطرس الاتحاد في الايمان بالمشيئة الواحدة .

1- Migne grec 90 col 132 A.
2- Migne grec 90 col 132 C.
3- Migne grec 90 col 169c- 172 B.

مكسيموس كان لبقا . أفهم بطرس أن الكنيسة الجامعة قائمة على الاعتراف القويم الخلاصي لا على البطاركة والمطارنة والأباطرة . أفهمه أن هؤلاء يصبحون خارج الكنيسة الجامعة إن إنحرفوا عن تعليمها . إنما هو يعترف بالايمان ولا يبالي بالعقوبات ويتمنى أن تجد مقاصد الله الأبدية تنفيذاً شاملاً .

في العام ٦٨٠ إنعقد المجمع المسكوني السادس ، فالتقى الشرق والغرب تحت راية مكسيموس . ومكسيموس هو المعلم البعيد لبلاماس . ومرقس الأفسسي أبْدَى في العام ١٤٣٩ وما تلاه ، بطولات مشابهةً لبطولة مكسيموس . فأطاعته الكنيسة ، وخذلت الأمبراطور والسلطات الكنسية المستزلة له . الشعب أيَّد مرقس فأنتصر الايمان الحق .

فالمبدأ قاطع في الكنيسة : الايمان القويم هو المعيار . ومن خرج عليه سقط خارجاً ، سواء كان أمبراطوراً أم بابا أم بطريركاً أم مطراناً أم فيلسوفاً أم عالماً أم فرداً من أفراد الشعب أم جماعة واسعة من الشعب . فالمسألة ليست منصباً أو عدداً ، بل إعترافاً قوياً بالايمان ولو تحمل المؤمن من أجله العذاب والموت شهيداً .

لا مساومات في الايمان بل ميتة الشهداء . سمعان اللاهوتي استبسل للحفاظ على اعلانه قداسة أبيه الروحي .

بقي أن نجلو مسألة الصراعات اللاهوتية في عهد بالاماس . خصومه قالوا إن النور الالهي الذي ظهر في جبل ثابور هو نور مخلوق . بالاماس مثَّل تيّار آباء الكنيسة ، فقال : إنه غير مخلوق وصادر من جوهر الآب .

أخذت المسألة في الغرب تطورات . لم يكن بالاماس عدواً للاتين كما يزعم بعض متطرفي الأرثوذكس . هو أكبر من ذلك . هناك من أساء الفهم . كان اللاتين يقولون مثلنا إنَّ كلام يسوع في متى ١٦ : ٢٨ [1] ينطبق على تجلي

١ ـ حاشية متى ١٦ : ٢٨ في الطبعة الكاثوليكية اليازجية ، ص ٤٧٢ من طبعة ١٩٦٠ .

المسيح ، بعد أيام ، أمام تلاميذه[1] تبدل الرأي فقيل إنه ينطبق على خراب اورشليم[2] . غاريغ[3] يحرف التأله لدى مكسيموس الى موضوع غير النعمة المؤلهة (غير المخلوقة) . غيره واجهها واعترف بها لديه[4] . وثالث أثبت أن القديس أوغسطين قال بذلك وأن توما الأكويني لم يكن بعيدا عن هذا المفهوم . ثم تعقّدت الأمور[5] . وهذا فتح كبير على طريق التقارب . فالعلماء الأوروبيون يعملون بجد ، بينما صرنا نحن لمتحف التاريخ القديم . أقامنا الله .

وقد أستنفد بالاماس الى حد كبير حججه ضد خصومه . فقال في نص ورد في متن الكتاب :

« فكما أن جسد المسيح الالهي عند تجلّيه أنار تلامذته خارجياً ، إذ كان بعد لم يدخل الى أجسام البشر ، فإنه الآن بإندماجه وبوجوده في داخلهم ينير أرواحهم داخليا » .

لقد عقدت في مجلة « النور » الغراء مقالاً حول الموضوع (١٩٧٩) . فقبل العنصرة كان النور الإلهي والمجد الالهي يتلألآن خارج البشر (على وجه موسى لا في داخله ، كما قال الذهبي وسواه) . أما في يوم العنصرة ، فقد سكن نور الله في داخلنا[6] . بالاماس عامل الرسل قبل العنصرة كما عامل آباء الكنيسة أنبياء العهد القديم وآبائه : قبل العنصرة الروح القدس ورد الى البشر من الخارج بما فيه الرسل القديسين . في العنصرة سكن في البشر[7] . القديس

1 - Chrysostome, P.G. 58 col 549; André de Crète, P.G. 97 col 937 A..., Palamas, triades, I p 166 (texte et n. 6) et II, p 496 (texte et note 3).
2 - Fillion, Vie de notre Seigneur J. C., II p 496, n.1., et 496-7.; Bible de Pirot, in Mat 16:28.
3 - Juan Miguel Garrigues, Maxime
4 - De Gross, la divinisation du chrétien, p 321.
5 - Dict. de Spiritualité, VI, col 709-712.
٦ ـ يكرر راهبان آثوسيان معاصران لبالاماس الرأي نفسه هما كاليستوس واغناطيوس : المثوية الروحية، ٥ .
7 - Jean Meyendorff, Introduction à Palamas, p 216. Vladimir Lossky, Vision de Dieu, P. 134.

ابيفانيوس ذكر في عظته عن السبت العظيم أن يسوع شاهد في الجحيم حتى يوحنا المعمدان الذي هو أعظم مواليد النساء . فأخرجه منها . في أيقونة العنصرة نرسم مريم العذراء جالسة في وسط التلاميذ وعلى رأسها ألسنة نارية . فهي نفسها شريكة في نعمة العنصرة المجيدة .

ولكن كيف شاهد الرسل النور على جبل ثابور وهو نور إلهي سرمدي ألمع من الشمس ؟

ترانيم عيد التجلي تتحدث عن إظهار الرب يسوع نوره . مكسيموس المعترف يقول : « إن (الرسل) عبروا من الجسد الى الروح (القدس) ، قبل أن يغادروا الحياة بحسب الجسد ، وذلك بتحول نشاط حواسهم ، الحادث فيهم بالروح » (القدس)[1] . وهذا ما كرره بالاماس بتوسع[2] فقد أثّر الروح القدس على عيونهم الجسدية ، ليبصروا النور السرمدي الذي ليس مادياً : فالرؤية روحية عقلية جسمانية أي رأى الرسل النور بأرواحهم وأجسامهم ، وذلك بفعل الروح القدس عليهم[3] .

1- Maxime, Migne 91 col 1125 D-1128A.

2 - Palamas, Triades, I, 3:11, 43;II,3:22 et 25; et III,1:15, 15,20 et 22; Migne 150 col 433 B.

٣ ـ قلنا في « سر التدبير » إعتماداً على لوسكي قولاً يؤيد نصوص بالاماس المنوه بها في الحاشية السابقة . قلنا : « وقد حجب نوره الإلهي إلا يوم التجلي على جبل ثابور ، مع أن نوره الإلهي موجود دائماً في جسده » (ص ٩٨) . ولكن يبدو لوسكي مناقضاً نفسه في ص ٢٢١ من كتابيه « اللاهوت الصوفي » وص ١٣٤ من « رؤية الله » .

حضرة الابن الروحي العزيز بالرب المحامي الاستا ذ سبيرو دام مباركاً.

بعد الأدعية بحفظكم وافتقاد سلامتكم الغالية أجاوب كتابكم رقم ٢٨ الماضي أنني حريص جداً على السلام في الكنيسة التي تتعرض من الداخل والخارج لأخطار مخيفة وكل ما يعنيني من الأمور التي ذكرتموها لي أن أفهمكم لتفهموا موكلكم المطران انطونيوس أنه إذا لم ينفّذ وعده بدفع مبلغ المايتين والخمسين ألف دولار لبناء مدرسة البلمند الامر الذي صرّح به أمام عدد من المطارنة ومن وجهاء ابرشيته فتصبح قضية أميركا في نظري ليست ذات قيمة البتة وكل ما تحملناه في سبيلها من سواد الوجه والجهود فليكن ضحيةً لوجه الله والقانون. أما أن يحارب سيادته - كما قلتم بسلاح غيره - فأنا على الأقل أحوج الى الراحة والسلام ولا أرى مبرراً للدخول في حرب أو جدال بسيط في أمور لا ناقة لنا فيها ولا جمل.

دمتم مشمولين بنعمته تعالى

١/٧/ ٦٤

الداعي لكم بالرب

مطران حماه

(١) الاب الطوباوي البطريرك الياس الرابع معوص انتزع في ليل ٢٠ ايار ١٩٦٤ من المثلث الرحمات انطونيوس بشير وعدا بربع مليون دولار لإنشاء معهد اللاهوت بدير البلمند ، وذلك في فندق سيميراميس بدمشق في حضرة المطران قربان وحقارتي . ثم كرر الوعد في الغداة امامهما وأمام المثلث الرحمات المطران حريكي والمطران بولس الخوري، ووجهاء أبرشيته المرافقين له . هذه الرسالة تتعلق بالأمر . يكلفني فيها حريكي ملاحقة بشير بما اني كنت وكيله العام . وضع المغبوط البطريرك ثيئودوسيوس الحجر الاساسي للمعهد ودشّنه صاحب الفكرة البطريرك الياس.

القديس غريغوريوس بالاماس

١٢٩٦ — ١٣٥٩

يعتبر الصوم الأربعيني الكبير فترة تهيئة روحية مكثفة يتمكن المؤمن في نهايتها من ذوق فرح القيامة المجيدة. وقد حرصت الكنيسة الأرثوذكسية بطقوسها على مساعدة الإنسان المصلي ليرسخ في ذهنه العقائد والتعاليم القويمة وبالتالي ليسمو روحياً حتى يبلغ نهاية هذه المرحلة وكلّه رجاء بالخلاص الحاصل بيسوع المسيح.

أما الأحد الثاني من الصوم، فتكرم فيه الكنيسة القديس غريغوريوس بالاماس، الذي عرف كيف يحفظ .العقيدة الأرثوذكسية والتقليد الآبائي الشرقي ويحميه من الهرطقات والخضات الفكرية التي كانت تجتاح بيزنطية في أوائل القرن الرابع عشر، بضع عشرات من السنين قبل سقوط الأمبراطورية.

ولد القديس غريغوريوس سنة ١٢٩٦ في عائلة نبيلة من آسيا الصغرى. كان والداه قد هاجرا الى القسطنطينية عند الإجتياح التركي .لذلك نشأ في بلاط الأمبراطور اندرونيك (Andronic) الثاني الذي كان من أتقى الحكّام البيزنطيين والذي حقّق التيوقراطية (Théocratie) بتأثير صديقه البطريرك أثناس الأول.

مكنته دراسته من معرفة الفكر الأرسطوطالي الذي يعتبر نوعاً من رياضة فكرية يستطيع المسيحي مزاولتها، لكنه لم يطلع على فلسفة افلاطون ولا على ميتافيزيقيته المتعارضة والتعليم المسيحي. في القسطنطينية عاشر الرهبان. وبتأثير منهم نما عنده ميل الى الحياة الرهبانية، فقرر سنة ١٣١٦ دخول الدير هو وجميع أفراد عائلته بما فيهم أمه وأختاه وأخواه والخدم، إذ أنه كان هو المسؤول عنهم جميعاً بعد وفاة والده. البعض التحق بأديرة العاصمة، أما هو وأخواه فقد اختاروا جبل آثوس حيث عاش الحياة الرهبانية طيلة ٢٠ سنة.

كان جبل آثوس في القرن الرابع عشر مركز إشعاع روحي وثقافي مهم. لذلك فإن السنوات التي قضاها غريغوريوس هناك كانت بمثابة خبرة روحية مهمة له كما، أتاحت له فرصة التعمق بالأدب الرهباني ومعايشة مشاكل الحياة الرهبانية ومحاولة حلها عن كثب:

هناك تياران متعارضان من الحياة الرهبانية كانا يتجاذبان رهبان جبل آثوس: التيار الجماعي الشركوي الذي أدخله القديس اثناسيوس الى آثوس في القرن العاشر، بموجبه يعيش الراهب حياة شركة ضمن الجماعة وينذر العفة والطاعة والفقر.

منذ القرن الحادي عشر دمجت الرهبانية البيزنطية التيارين. فكان للمعلم الروحي سلطة على الرهبان في الرهبنات الجماعية، الى جانب سلطة رئيس الدير؛ كما أن بعض المتوحدين كانوا يجمعون حول معلم روحي واحد، يتقشفون ويصلون سوية أيام السبوت والآحاد وهم متوجهون الى دير من الأديرة حيث يشاركون في الخدمة الإلهية.

انتقد بالاماس بشدة التوحد المتطرف الذي لا يقيم وزناً للحياة الليتورجية واتبع طريقة الدمج بين التيارين في جبل آثوس. وهكذا عاش بشكل متقطع وفي جماعات كبيرة، بالقرب من دير Vapépodiثم في دير Grande Laure ثم في ديرGlossiaولكن خوفاً من القراصنة الأتراك قرّر بالاماس مع عدد من الرهبان التوجه الى الأرض المقدّسة وسيناء على الرغم من الإحتلال الاسلامي لهذه المناطق. غير أنه لم يتحقق له ذلك بل بقي في تسالونيك حيث حاول نشر الروحانية الرهبانية خارج الأديرة، وحيث سيم كاهناً سنة ١٣٢٦. على أثر هذا أسس بضواحي Berrhée ديراً كان رئيساً له وعاش التقشف الشديد طيلة خمس سنوات كان خلالها يتوحد في أيام الأسبوع الأولى الخمس أما يومي السبت والأحد فيأتي الى الأخوة كي يقيم معهم سر الشكر ويتحدث اليهم. وهكذا نلاحظ عنده التوفيق بين الحياة الروحية الفردية والصلاة الجماعية وهو أمر يطبع تعليم بالاماس اللّاهوتي.

عام ١٣٣١ عاد الى آثوس الى دير القديس سابا بالقرب من دير Grande Laure وعاش الحياة الرهبانية ذاتها التي عاشها في
. في سنة ١٣٣٥-١٣٣٦ سمي رئيساً لدير يضم ٢٠٠ راهب.
لكنه ما لبث أن اختلف معهم بسبب منهجه الإصلاحي.
فعاد الى دير القديس سابا حيث كانت تنتظره اهتمامات كثيرة منها المناظرة التي أقامها مع برلعام الكالابري والتي حددت مصير المسيحية الشرقية فيما بعد.

حل برلعام اليوناني من كالابرا (Calabre) في القسطنطينية سنة ١٣٣٠ ، حيث نال شهرة واسعة كعالم وفيلسوف وحيث شغل كرسي استاذ في الجامعة الأمبراطورية . في سنة ١٣٣٣ — ١٣٣٤ مثل برلعام الكنيسة اليونانية أمام اللّاهوتيين الدومينيكان اللذين أرسلهما البابا الى الشرق ليحضرا لوحدة الكنائس. وفي سنة ١٣٣٩ أرسل الى Avignon ليمثل الحكم البيزنطي أمام بينوا الثاني عشر. (Bénoit XIII) ولكن سرعان ما لاقى المتاعب عندما ابتدأ يتعاطى اللّاهوت .

نشأ برلعام في ايطاليا حيث تأثر بفكر النهضة الذي كان يحاول التحرر من عقلانية القرون الوسطى الممثلة لاهوتياً بمدرسة للقديس توما الأكويني والقائلة أن لا وجود البتة لكل ما لا يحده العقل . وعليه فإننا بإمكاننا أن ندرك الله ادراكاً عقلياً . هذا التوق الى التحرر كانت نتيجته فيما بعد الإصلاح البروتستانتي .

في القرن الرابع عشر عرف الغرب فيلسوفاً يدعى غيوم أوكهام نادى بالفلسفة الاسمية nominaliste والقائلة أن المفهوم Concept ليس الّا اسماً له مدلول حقيقي موجود فعلاً . تأثر برلعام بهذا التيار الفلسفي فرفض الفكر اللّاتيني الذي يدعي بقدرة العقل البشري على معرفة الله وقال أن الأمور الإلهية موجودة فعلاً ولكن لا يستطيع الإنسان ادراكها . وبما أن الله لا يمكن أن يُعرف عقلياً ، فإننا لا نستطيع أن نناقش انبثاق الروح القدس . لذلك على الكنائس أن تتوحد إذ أن خلافها حول الإنبثاق أمر وهمي . كذلك حارب ما يدعي الرهبان عن رؤيتهم الجوهر الإلهي بأعين الجسد وعن صراع الروح مع قوى الشر فقال أن الإنسان المعلي يجب أن يميت جسده .

هنا راح بالاماس يوجه الرسائل الى برلعام ينتقد فيها هذا التعليم ويقول : الله لا يُعرف بالعقل . هذا صحيح . ولكن الله تجلّى لنا بالمسيح الذي بتجسّده مكّن البشر من معرفته معرفة تفوق الطبيعة . هذه المعرفة هي غير عقلانية ، مستقلة كل الاستقلال عن أي معرفة حسية ولكنها كيانية . وبالتالي حقيقية أكثر من أي معرفة فلسفية عقلانية . فالإنسان ككل ، جسداً وروحاً يتمكن من معرفة الله بفعل الروح القدس . إذاً هو لا يرى الله بقوته ولا يدركه بعقله بل بنعمة الروح القدس يعرفه يدخل كيانه وهكذا يستطيع الإنسان أن يبدأ بالتأله منذ هذه الحياة الدنيا . فالجسد ليس سجناً للروح كما ورد في

الفكر الأفلاطوني والبرلعامي، بل هو يقبل الأسرار التي تغذي النعمة التي فيها وتنميها بداخله وهو يقوم في اليوم الأخير. تجسد المسيح هو أكبر دليل على امكانية رفع الجسد وتقديس الإنسان ككل: (١ كو ٦ : ١٩) و(كولوسي ٢ : ٩).

إذاً بالأسرار وبنعمة الروح القدس يدخل المسيح الى أجسادنا النعمة ليست مخلوقة هي أزلية، معطاة لنا. ونقبلها أو نرفضها، ندخلها الى أجسادنا فتفعل فيها أو نبقيها خارجاً. فإن نحن قبلناها تتقدّس أجسادنا وتلتصق بجسد المسيح بواسطة سر الشكر. وهكذا لا يعود الله خارجنا بل نكتشف بداخلنا نور جبل ثابور الذي شاهده الرسل خارجاً عنهم لأن المسيح لم يكن قد مات وقام بعدُ. أما اليوم فإننا كلنا أعضاء جسده، الكنيسة.

لذلك فإن الروحانية المسيحية التي تقول بالرجوع الى الذات Retour en soi تختلف عن المقولة الأوسطوطالية «اعرف نفسك» Connais-toi, toi même الرجوع الى الذات هو الرجوع الى الداخل لمعرفة النور الإلهي الذي فينا. عندها نشعر بفرح روحي. هذا الفرح لا يفسده الجسد بل بالعكس يعمل في الجسد يروضه، لأنه يطرح عنه كل شهواته ويرتفع به، بحيث يصبح الإنسان كلّه روحاً حسب ما كتب:

Celui qui est né de l'Esprit est esprit. (Jean III- 6 - 8)

وهكذا يعيد بالاماس الى الجسد والمادة اعتبارهما.

كذلك هناك هوة عميقة بين التيار الرهباني الروحي والنرفانا الهندية: المسيحي يعمل من أجل حياة جديدة في المسيح. هذه الحياة توفرها له نعمة المعمودية ونعمة سر الشكر. لذلك فهو لا يدعو إلى تصوف فردي ذاتي، بل الى شركة في الأسرار مع الجماعة. (نلاحظ عند القديس غريغوريوس تشديده على الاشتراك بالقداس الإلهي لأن من يهمل الاشتراك في الذبيحة كمن يبتعد عن الله).

ثم إن نظرته الى التاريخ تختلف عن النظرة الهلينية: المسيح الآتي هو المسيح الصاعد الى السماء، الممجّد: (أعمال ١ : ٢) وهكذا يتكلم بالاماس عن روحانية ترتكز على حدثين تاريخيين: تجسّد الكلمة كحدث ماض وقيامة المسيح كحدث آتٍ. لذلك هو لا يتجاهل التاريخ كما فعل الفلاسفة الهلينيون عندما تكلموا عن السعادة محصورة بالمكان manière spatiale إذ أنها معرفة بهذا العالم وذاك العالم الآخر au-delà بينما الكتاب المقدّس يتكلّم عن زمن

حاضر وزمن مستقبل. المسيحي لا يسعى لأن يتحرر من التاريخ لأنه لا يسعى الى خلع الجسد ولا يحتقر العالم المادي ولكنه يعطي للتاريخ معنى ويرفع العالم المادي عندما يسعى الى هدف محدد الا وهو التأله الكلي أي الإندماج بالمسيح. الإنسان المتقدّس يتمكّن بواسطة الروح القدس من مشاهدة الملكوت الآتي مشاهدة مسبقة.

هذه النفحة النبوية للرهبانية الشرقية تجعلها مسؤولة ليس عن خلاص الرهبان الذاتي وحسب بل عن سلام الكنيسة جمعاء. وهذا ما دفع بالاماس الى الخروج من عزلة جبل آثوس والإهتمام بشؤون الكنيسة جمعاء وبتعاليمها.

أول مستند رسمي نشر ضد برلعام كان سنة ١٣٤٠ — ١٣٤١ كتبه بالاماس ووقعه رهبان جبل آثوس مجتمعون.

سنة ١٣٤١ حرم المجمعان اللذان عقدا في كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية الفيلسوف برلعام الكالابري الذي غادر الشرق وعاد الى ايطاليا حيث سمي اسقفاً على جيراس (gérace)

بالرغم من هذا التماسك الظاهري للحكم البيزنطي والإخلاص لتعاليم المجامع المسكونية السبعة كان داخل الأمبراطورية صراع داخلي بين تيّارين: تيّار هيليني فلسفي يدعو الكل أن يقبل على دراسة العلوم الهيلينية لأن الجهلة أناس ناقصون وآخر روحاني لاهوتي متميز عن الفلاسفة القدامى والذي يقول أن ليس بالمعرفة العلمية أو الفلسفية نكتمل بل بمعرفة المسيح وتعاليمه إذ لا حياة ولا نشاط فكري إلّا في المسيح يسوع. هو يجعل حياتنا أفضل ويملأنا بحكمة الله فنصير حقاً على صورة الله ومثاله (فيلبي ٣: ١٤ — ١٥).

أما الكنيسة فكانت تتمسك بتعاليم المجامع السبعة لتحمي نفسها عقائدياً. وكانت تحرم كل من تخول له نفسه أن يوفق بين الفلاسفة الهيلينيين والإنجيل. (الأحد الأول من الصوم هو أحد الأرثوذكسية فيه كان يحرم كل من يعتنق الفكر الأفلاطوني أو كل من يتبين فكر الفلاسفة الغير المسيحيين). هذا الترمت هو الذي حمى الكنيسة من الخضات والهرطقات التي أتت بها العصور الحديثة والتي زعزعت الكنيسة الغربية كما حصل في عصر النهضة أو بسبب حركة الإصلاح البروتستانتي.

ومن جهة أخرى وبسبب بعض الإنقلابات السياسية والخضات التي حصلت داخل الامبراطورية البيزنطية والتي دانها بالاماس لأنها أفقدت البلاد السلام الذي كان يعني له الكثير، أوقف واتهمه البطريرك زوراً بالهرطقة لتبرير سجنه سنة ١٣٤٣. وفي سنة ١٣٤٤ قطع من الشركة وسيم أكنديوس، الذي كان بالاماس قد حارب تعليمه سابقاً، كاهناً. لكن الأمبراطورة آن التي كانت تعتبره عدواً سياسياً ولكن تقدر فيه اللاّهوتي ورجل الكنيسة، وقفت ضد البطريرك وأبعدته سنة ١٣٤٧ على أثر هذا عاد كانتا كوزان Cantacuzène عدو البطريرك الى العاصمة واعاد الاعتبار الى بالاماس. وفي سنة ١٣٤٧ عين أسقفاً لتسالونيك.

ومنذ مجمع ١٣٥١ أصبحت تعاليم بالاماس هي تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية وطقوسها.

في تسالونيك رعى شعبه بحكمة. ولكنه وعندما كان يقوم برحلة من تسالونيك الى بيزنطية وقع في أسر الأتراك حيث قضى ما يقارب العام. رسائله في هذه الفترة تدل على تأثره بمعاملة الأتراك للأسرى المسيحيين ورحمتهم لهم. كما تدل على اهتمامه بالدين الإسلامي الذي اطلع عليه من خلال نقاشه مع ابن الأمير اورخان حتى أنه كما كتب «كان يامل أن يأتي يوم يكون التفاهم بيناً على أحسن وجه».

لم يمنعه تمسكه بتعاليم الأرثوذكسية من الإنفتاح على الآخرين والتحاور معهم. هذا التدين الصادق والقابلية للحوار ساعد فيما بعد وبقدرة الهية على بقاء المسيحية الشرقية بالرغم من الإحتلال التركي الذي دام ٤٠٠ سنة.

توفي القديس بالاماس سنة ١٣٥٩ في تسالونيك. وفي سنة ١٣٦٨ كرسه تلميذه وصديقه البطريرك المسكوني فيلوتي (Philopthée) قديساً.

وهكذا يعتبر القديس بالاماس، كما هو وارد في الطروبارية التي ترتل له، مشعلاً للأرثوذكسية ومثالاً للرهبان وسائداً لا يُقهر للاهوتيين.

سعاد دبس

(عن كتاب القديس غريغوريوس بالاماس للأب جان مايندورف)

فهرس بمنشورات

مكتبة السائح

تأسّست سنة ١٩٧٣. وبعد سنين قليلة دخلَت مغامرة النشر فأصدرت ما يقارب الكتب العشرة. وفي تموز ١٩٨٠ شرعت بإصدار «المنشورات الأرثوذكسيّة». ومنذ تموز ١٩٨١ بدأت «المنشورات الجامعة» ومع مطلع سنة ١٩٨٢ لحقتها بـ«الكرّاسات الأرثوذكسيّة». وإلى القرّاء الكرام نقدّم فهرساً يعرِّف بجميع الكتب التي نشرتها:

١ — الكتب العامة

١. **طوبى للودعاء**
للأستاذ فيليب عبد الحق.

٢. **المرجع في تاريخ العلوم عند العرب**
د. محمد عبد الرحمن مرحبا.

٣. **رسالة في العدد**
الدكتور محمد عزّت نصرالله.

٤. **قصائد الزمن الميت**
ميشال سابا.

٥. **الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء**
للمؤرخ نعمان قساطلي.

٦. **حديقة الصداقة والصديق في لزوميات أبي العلاء المعرّي**
للأستاذ الياس سعد غالي.

٧. **أناشيد في تجليات الزمن الديني**
ميشال سابا.

٨. **مفهوم الايمان بين الانجيل القرآن**
الأب سلّوم سركيس.

٩. **لبنان وفلسطين والمسيحية**
الأب سلّوم سركيس.

١٠. **تاريخ حمص — القسم الأول**
الخوري عيسى أسعد.

١١. **تاريخ حمص — القسم الثاني**
منير الخوري عيسى أسعد.

١٢. **قرد أم إنسان**
اسبيرو جبّور.

١٣. **دمعة محبة**
نقولا زيدان.

١٤. **تراجم علماء طرابلس وأدبائها**
عبدالله حبيب نوفل.

١٥. **بين الموسيقى العربية والبيزنطية**
الأب فوتيوس خليل.

١٦. **رسائل حضارية في مواجهة الصهيونية**
الأب فوتيوس خليل.

١٧. **زيارة الملكة**
ممدوح عدوان.

١٨. **المفسدون في الأرض**
سليمان ناجي.

١٩. **الألسنية**
جورج ميخائيل كلّاس.

٢٠. **المدخل إلى المبدأ الكلّي**
ندرة اليازجي.

٢١. **فتح العرب للشام**
الدكتور جورج حدّاد.

٢٢. الفكر العربي في مخاضه الكبير

الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا.

٢ — الكتب الدينية

٢٣. ملايين من الذين هم أحياء اليوم لن يموتوا أبداً.

٢٤. لاهوت الكنيسة عند القديس اغناطيوس الأنطاكي

تعريب الأب ميشال نجم —

٢٥. قراءة في رسائل القديس باسيليوس

الأب إبراهيم سرُّوج.

٢٦. سرّ التدبير الإلهي

للعلّامة اسبيرو جبّور.

٢٧. ترفّقوا بالخطأة

للقديس أمبروسيوس.

٢٨. العبادة المسيحية

دير مار جرجس الحرف.

٢٩. في التوبة

للشماس اسبيرو جبّور.

٣٠. يوحنا الذهبي الفمّ

تعريب الأسقف جبران رملاوي.

٣١. قديسون من حمص

للشماس اسبيرو جبّور.

٣٢. طريق النسّاك

تيتوكوليياندر

تعريب الشماس اسبيرو جبّور.

٣٣. سرّ الانطلاق

الشماس ناجي اسحق

٣٤. المزيفون

اسبيرو جبّور.

٣٥. الحمامة

لابن العبري.

٣٦. البطريرك اغناطيوس الرابع

في دير القديس جاورجيوس الحميراء.

٣٧. كونوا قدّيسين

رعية برسا.

٣٨. قانون يسوع

اسبيرو جبّور.

٣٩. خبايا الزوايا في تاريخ صيدنايا

حبيب الزيّات.

٤٠. الكنيسة المسيحية

سميرنوف تعريب المطران

ألكسندروس جحا

٤١. رجل المحبة

البطريرك الياس الرابع.

٤٢. صلاة النوم الكبرى

نفدت.

٤٣. كتاب المديح

١٤ × ١٩ سم.

٤٤. البهجة الروحية

٨ × ١٢ —

٧٤٢ صفحة.

٤٥. **التعزية الحقيقية في الصلوات الإلهية**

جمعها الأسقف رفائيل هواويني.

٣ — الكتاب المقدس وشروحاته

٤٦. **الأفخولوجي الصغير.**

٤٧. **خدمة جنّاز المسيح**

٤٨. **خدمة الفصح المقدس**

٤٩. **الترجمة الكاملة للكتاب المقدس**

تعريب فارس الشدياق.

٥٠. **شروحات الكتاب المقدس**

١٧ × ٢٤ سم.

٥١. **شرح الرسالة إلى فيلمون**

٥٢. **شرح الرسالة إلى تيطس**

٥٣. **شرح لرسالة بطرس الأولى**

٥٤. **شرح لرسالة بطرس الثانية**

٥٥. **شرح رسالة يعقوب**

٥٦. **شرح رسائل يوحنا ١ و٢ و٣ ورسالة يهوذا**

●

ومنذ مطلع سنة ١٩٨٢ بدأت بطبع «الكرّاسات الأرثوذكسيّة» التي توزّعها مجاناً وقد صدر منها:

١. **شرح دستور الايمان**

بقلم باحث أرثوذكسيّ.

٢. **لو جاءت ملائكة**

للمطران فيليبس صليبا.

٣. **المدرسة المسكونية**

بقلم يوسف أسعد داغر.

٤. **لمحة في تاريخ أبرشية عكار**

الخوري نايف ابراهيم.

٥. **مار مارون**

بقلم اسبيرو جبّور.

٦. **أخوة يسوع: من هم؟**

بقلم اسبيرو جبّور.

٧. **الكنيسة الأرثوذكسيّة**

الأب بولغاكوف.

٨. **شهود يهوه معلّمون كذَبَة.**

٩. **الكنيسة الأرثوذكسيّة**

أفدوكيموف.

١٠. **ميلاد المسيح**

اسبيرو جبّور.

١١. **الزواج والمعموديّة**

اسبيرو جبّور.

١٢. **موجز التاريخ الأبيض للكرسي الأنطاكي**

اسبيرو جبّور.

●

كتب أشرفت مكتبة السائح على طبعها والتزمت بتوزيعها:

١. **الصوم الكبير**

تعريب الأب ابراهيم سرّوج.

٢. **نصف إنسان**

اسبيرو جبّور.

٣. **كتاب الايقونة**

تعريب الأب ابراهيم سرّوج.

٤. **أمثال الرب يسوع**

المطران الياس قربان.

٥. **السنة الطقسية**

المطران الياس قربان.

٦. **الأزمة البطريركية الأنطاكية الأرثوذكسية**

المطران الياس قربان.

●

كتب صدرت حديثاً

١. **العبادة المسيحية**

رهبنة دير الحرف.

٢. **الكتاب المقدس في الكنيسة**

تعريب الشماس ابراهيم سرُّوج

٣. **بولس الرسول**

البطريرك الياس الرابع.

٤. **بستان الرهبان**

٥. **العمارة الفنية في شعر امرئ القيس**

د. قصيّ الحسين.

٦. **مدخل الى تاريخ الحضارات**

د. جورج حدّاد.

٧. **هكذا تكلّم يسوع**

المطران صويّتي.

٨. **على مائدة الربّ**

المطران اسبيريدون خوري.

٩. **حافظوا على عيون أطفالكم**

الدكتور كوفانسكي.

١٠. **ملاحظات حول تاريخ لبنان**

د. سركيس زعتر.

١١. **ديوان ابن منير الطرابلسي**

د. عمر عبد السلام التدمري.

١٢. **الأمراض النفسية وعلاجها**

د. محمد أحمد النابلسي.

١٣. **الحلم والواقع**

نيقولاس بردياييف.

١٤. **العزلة والمجتمع**

نيقولاس بردياييف.

١٥. **ذكاء الجنين**

●

الكتب التي توزِّعها

١. **الرجاء الذي فينا**

ديمتري دوركو.

٢. **الحياة الثقافية في طرابلس**

د. عمر عبد السلام التدمري.

٣. **علم الميراث**

٤. **الوقف في الشريعة الإسلامية**

٥. **غريب القرآن**

الشيخ نديم الجسر.

٦. **متى يفترض أمين السجل العقاري**

٧. **أبحاث في التحديد والتحرير**

أسعد داغر — طارق زيادة.

٨. **المؤسسة التجارية**

طارق زيادة — أسعد دياب.

٩. **الرسالة الحميدية**

الشيخ نديم الجسر.

١٠. **خزائن الكتب في دمشق وضواحيها**

الياس الزيّات.

١١. **التطور النفسي في الألف القادمة**

لنسن.

١٢. **حوّاء الرائعة — قصص**

فيليب عبد الحق.

١٣. **موضع الانسان في الطبيعة**

تيار دي شردان.

١٤. **نظرات حديثة في الكتاب المقدس**

هري امرسن فوزدك.

١٥. **مع المسيح**

بولس سلامة.

١٦. **فهرس مخطوطات دير البلمند**

رشيد حدّاد وفايز فريجات

١٧. **صحيفة الأبرار في مجلّدين**.

١٨. أصول التبليغ

مؤلفات المطران أبيفانيوس

١. مختارات الشعر الروسي
٢. منهج الواعظ
٣. نبذة في حقيقة الانجيل
٤. الأمالي الذهبية للذهبي الفم
٥. مصباح الكاهن
٦. بدعة تبرئة اليهود.
٧. الخطيئة والموت
٨. الروضة الروحية
٩. صلاة التوبة لافرام السرياني
١٠. أسرار أبدية وراء القبر
١١. حياة المطران أبيفانيوس
١٢. يوبيله الذهبي
١٣. ديوانه
١٤. الكنيسة المستقلّة

تبرّع لطباعة كتاب التيبيكون

	دينار أردني
عن نفس المرحوم فؤاد نعمان امسيح	٢٠٠
عن نفس المرحومة سيسيل سلمان السكاكيني	١٠٠
عن نفس المرحوم خليل فضة شاهبنة فكتور	٢٥
عن نفس المرحوم اميل برغوت	٢٠
نبيل زيدان	٣٠
جبرا دحدل	٢٠
سليمان الفاخوري	٢٠
ولم [illegible]	٥

* * *

كثيرون تبرّعوا لإحياء التراث الرومي الآبائي وقد آثروا ألّا تُذْكَرَ أسماؤهم لمجد الله.

